

الباب الثامن

عضو في السكربتارية المركزية للإتحاد الاشتراكي الألماني

في ضحى أحد الأيام المشمسة من شهر يوليو سنة ١٩٤٥ وقفت اثنتا عشرة سيارة نقل أمام المنزل رقم ٨٠ في شارع « برينسين » لنقل الأثاث اللازم لتأثيث مبنى الحزب الجديد . كان الرأي يتجه أساسا الى تأثيث منزل « كارل ليبكنيثشت » السابق ، ليكون المقر المركزي للحزب الشيوعي الألماني ، ثم تبين أن ذلك غير ممكن ، فتقرر اتخاذ مبنى أكبر في شارع « فال » رقم ٧٦ — ٧٩ في وسط مدينة برلين . استمر العمل ليلا ونهارا لتجهيز وتجديد المبنى ، فانتهت هذه العملية بعد وقت قصير ، وأمكن البدء في التأثيث .

تقرر أن يكون في الدور الأول في مقر الحزب الجديد ، مكاتب أعضاء القمة الأربعة « فيلهيلم بيك » و « فالتر أولبريخت » و « فرنس داليم » و « أنتون آكارمان » .

انهك النجارون في عملهم ، فجاء « فيلهيلم بيك » وهو نجار سابق ، ولم يكن قد أصبح رئيسا بعد ، بل كان عضوا مسرورا جدا لأنه عاد الى برلين — وارتدى بدلة العمل ، وساعدهم بنفسه ، ولم أره — الا نادرا — مسرورا مثل ما كان في تلك الأيام .

انتهت عملية النقل من المنزل رقم ٨٠ في شارع « برينسين » الى مقر الحزب الجديد بعد أسبوع ، وفي نفس الوقت انتقلت أنا و « فالديمار شميت » الى سكن خاص في شارع « فروشههايم » في حي « بانكوف » . تصادقت مع « فالديمار » — الذي ظل في معسكرات الاعتقال طوال عهد النازيين ، اثني عشر عاما ، والآن رئيس الحزب الشيوعي في برلين — منذ الأيام الأولى من مايو . دبر السكن واقترح على أن أنتقل معه .

كذلك بحث قياديون آخرون — ومعظمهم في « بانكوف » — عن

سكن خاص • ولم يبق الا « المخلصون للخط » في المنزل رقم ٨٠ في شارع « برينسين » الذى عرف من الآن فصاعدا على أنه « مبنى سكن العاملين في اللجنة المركزية » •

انتهت فترة حمى الانتقال — وبدأت الحياة العادية • سكنت مع رئيس الحزب في برلين ، وكان مقر العمل يدعى : اللجنة المركزية للحزب الشيوعى الألمانى ، في شارع « فال » رقم ٧٦ — ٩٩ •

قسم العمل بعد النقل مباشرة الى أربعة أقسام تابعة « للأربعة الكبار » ، فأُسند الى « فيلهيلم بيك » القيادة العليا ، وكان مسئولاً أيضاً عن السياسة العامة ، والى « فالتر أولبريخت » الاقتصاد ، والزراعة ، والنقابات وجهاز الدولة ، والى « فرانس داليم » أنظمة الحزب ، والى « أنتون آكارمان » الصحافة ، والتعليم ، والتثقيف الشعبى ، والثقافة الحزبية •

كان « أولبريخت » رئيسى حتى ذلك الحين ، ولكن أظهرت « قيادتى » في هيئة تحرير جريدة الحزب بأنى سَأستمر في العمل الصحفى ، وفي العمل السياسى الحزبى ، وتحقيق ذلك أيضا : لم يكن قد استكمل تأييث منزلنا ، حين استدعانى « أنتون آكارمان » :

— « لقد رأينا أن تكون نائب رئيس قسم الصحافة في اللجنة المركزية ، مسرور ؟ »

— « طبعاً •• جدا ، ومن رئيس قسم الصحافة ؟ »

— « ليس عندنا الآن رئيس قسم صحافة ، فستكون وحدك مؤقتاً » •
وسرعان ما كثر العمل ، فامتلات في الأيام القليلة الأولى رفوف الكتب ، وخزائن المجلات ، حتى التقارير والبحوث التى لم تكن متعلقة تعلقا مباشرا بتلك المسائل التى تهتم بها الأقسام الأخرى ، أرسلت ببساطة الى قسم الصحافة ، كذلك كثر الزوار ، فبدأت أحس بأنى أتولى رئاسة قسم مشغول بكل الأشياء ، التى لا تريد الأقسام الأخرى انهاءها وأصبحت عادة مألوفة أيضا أن يرسل الى المندوبون السوفييت ولم يكن عددهم قليلا — الذين يريدون أن يأخذوا « صورة عامة » عن سير العمل • وكان لزاما على صابرا أن أشرح للزوار — يوميا أكثر من مرة — أهمية البيان التأسيسى للجبهة الديمقراطية المتحدة المناهضة للفاشية وأهدافها ، واعادة تكوين النقابات من جديد ، و « الخط العام » •

وأضيف الى ذلك الاتصال بـ « جريدة الشعب الألمانية » • وعلاوة على ذلك فقد تحتم على الاشتراك في الاجتماعات ، والقيام بمهام خاصة ، والسفر مع « أولبريخت » و « آكارمان » وترجمة بحوث من الروسية ، وكتابة تقارير للجريدة الناطقة بلسان الحزب ، أو تجهيز خطبة ، وكتابة بيان اللجنة المركزية الذى سيذاع فى ٧ نوفمبر •

وهكذا كان يوم العمل مملوءا ، وكان يوم عمل طويل ! كانت فترة العمل الرسمية آنذاك فى اللجنة المركزية ، للحزب الشيوعى الألمانى عشر ساعات فى اليوم ، فالزمن الرسمى للعمل من ٩ صباحا حتى ٧ مساء ، ولكنها كانت تزيد عن ذلك فى معظم الأيام ، وكنت ترى كثيرا من القياديين فى ساعة متأخرة من الليل فى مقر الحزب •

« تكليف خاص » الاصلاح الزراعى

استدعانى « أولبريخت » ذات يوم بعد الظهر :

« اعمل حسابك على أن تنتهى من عمل ما فى يدك اليوم ، حتى لا يكون عندك عمل غدا ، فسوف تسافر معى الى مقاطعة « براندينبرج » • وعندما وصلت فى صباح اليوم التالى الى مقر اللجنة المركزية ، كان « أولبريخت » على استعداد للسفر ، فعرفنى على اثنين من كبار أعضاء الحزب الشيوعى الروسى المتخصصين فى الشؤون الزراعية :

— « سوف نسافر سويا مع هذين الرفيقيين » •

ثم تحركنا بعد دقائق قليلة ، فى العربتين الأنيقتين الـ « ليموزين » الخاصتين باللجنة المركزية • وشرح لى « أولبريخت » فى الطريق طبيعة هذه المهمة •

— « يجب أن ندرس بعض مسائل تسليم الانتاج الزراعى ، ونهىء

الوضع لقانون الاصلاح الزراعى » •

دارت مناقشات فى أماكن مختلفة فى مقاطعة « براندينبرج » — ومناقشة موسعة بشكل خاص فى « كيرتس » — مع الحكمداريين والعمد ، ومع الأخصائيين الزراعيين ، فتعجبت من معلومات « أولبريخت » التفصيلية المضبوطة عن حصة تسليم المحاصيل الزراعية للحكومة فى

عهد النازية • وازدادت دهشتى أيضا عندما فتح المرافقان السوفييتيان — وكانا يتحدثان اللغة الألمانية بطلاقة — حقيبتيهما ، وأخرجتا منها رزما من الاستثمارات والأوامر والوثائق عن حصة تسليم المواد الزراعية للحكومة فى عهد النازية ، ووضعها على المنضدة • ازدادت حدة المناقشة بنوع خاص مع أخصائيين « هواها مع الامبراطورية » • كان لدى « أولبريخت » معلومات تفصيلية عن كل شئ ، فتواترت الأسئلة واحدا بعد الآخر ، وكانت اجابة موظفى الامبراطورية السابقين مختصرة جدا ، فشرع « أولبريخت » أجنته ، كعادته عندما تتعلق المناقشة بمسائل تنظيمية عملية •

لم أفهم كثيرا من هذا الموضوع كله ، فنحن لم نتعلم فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية هذه المسألة بدقة ، ولكن على قدر ما أمكننى تابعت المناقشة ، فقد كانت تدور حول كيفية امكن تعديل تسليم المحاصيل الزراعية ، كى تتناسب مع الظروف الجديدة • ونوقشت بالتفصيل مسألة عدم القسوة على المزارعين فى اللجنة التى يفرض عليهم تسليمها ، وأعتقد أنهم قرروا فى ذلك اليوم مقدار « الكمية التى تترك للفلاح » وكانت قليلة جدا •

قضينا اليوم كله فى مناقشت مع الأخصائيين حول مشاكل تسليم المحصول الزراعى الى الحكومة ، ولم نتحدث فى موضوع الاصلاح الزراعى الذى كان يثير اهتمامى جدا • وقبل مغادرة « كيريتس » عقدت محادثة بين « أولبريخت » والضابطين ، فقال أحدهما :

« الأشياء واضحة جدا الآن : فنستطيع تجهيز الاقتراحات اللازمة وربما يكون من الأفضل التوقف فى أى قرية صغيرة ، لنتحدث مع بعض الفلاحين عن الاصلاح الزراعى » •

توقفنا فى طريقنا من « كيريتس » الى برلين فى قرية صغيرة ، فذهل رئيس الناحية من زيارة الضيوف الكبار المفاجئة ، فقال له « أولبريخت » : « هل يمكن أن نجمع كل الفلاحين » ؟

— « طبعاً » •

— « كم من الوقت يستغرق هذا » ؟

— « قريتنا ليست كبيرة ، فسيكون كل الفلاحين هنا فى مدى ربع ساعة » •

وفي غضون ذلك تجمع بعض الفلاحين أمام منزل رئيس القرية ، فقيل لهم : « اذهبوا بسرعة ، واجمعوا كل الناس ، فالمسألة هامة جدا » . وفي هذه الفترة استفسر « أولبريخت » بطريقته المختصرة من رئيس القرية عن الوضع العام فيها ، عن الملكية ، وعن نوعية خصوبة الأرض وعن أشياء زراعية أخرى .

اجتمع الفلاحون بعد حوالي ١٥ — ٢٠ دقيقة ، وتمتم بعضهم بكلمات غير مفهومة ، ولكنها رنت في الأذن مثل « نهاركم سعيد » ونظر البعض الآخر نظرة ارتياب وشك .

سأل « أولبريخت » عن المحصول وعن تسليم الحصة الى الحكومة ، ولكن لم يجب اجابة ذاتية الا ثلاثة فقط بعد تردد طويل ، فكان بعضهم ينظر مرتابا الى كلا الضابطين اللذين وقفا في أحد أركان الحجرة ، ولم يزد اشتراكهم في النقاش الا بعد أن سأل الضابطان — وهما بيتسمان — بعض الأسئلة باللغة الألمانية ، وقدا أيضا بعض السجائر للفلاحين . وشيئا فشيئا بدأ الفلاحون من أنفسهم يتحدثون عن خصوبة الأرض . وعندئذ أدار « أولبريخت » دفة الحديث الى الهدف المحدد : الاصلاح الزراعي . تحدث « أولبريخت » عن توزيع أراضي الاقطاعيين ، فذكر أن الفلاحين سيحصلون على مساحات أكبر .

— « اشرحوا لنا مغزى هذا الكلام ! »

أعادوا النظر اليها بارتياب ، وساد صمت تام . وأخيرا قطع أحد الفلاحين هذا الصمت :

— « نعم . . . لن يكون الوضع سيئا ، لو حصلنا على أرض أكثر » . وبعد أن شرح رئيس القرية ، الموضوع مرة أخرى ، وافق أيضا بعض الفلاحين ، وهز الصامتون رؤوسهم بالموافقة . لم يكن الوضع كما تصورت بأن الفلاحين سيتحمسون تحمسا شديدا للاصلاح الزراعي ، ولكن عبر كل الحاضرين عن موافقتهم ، وان اختلفت طرق التعبير .

كنت أتمنى أن أمكث مع الفلاحين وقتا أطول ، ولكن « أولبريخت » نظر الى ساعته ، فاقترح الضابطان السوفييتيان الاكتفاء بهذا .

توقعت أن نتوقف في قرية أخرى لنختبر رد فعل الفلاحين على مشروع الاصلاح الزراعي في أماكن عدة ، ولكن « أولبريخت » والضابطين السوفييتيين رأوا أن ذلك غير ضروري .

وصلنا الى برلين في المساء ، ثم وضع لى بعد أيام قليلة أنه لم تقتصر نتيجة هذه الرحلة على تحديد ما يترك للفلاحين من الانتاج الزراعى ، بل كان من نتيجتها أيضا قرار البدء فى تنفيذ الاصلاح الزراعى فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى (١) .

قال لى « آكارمان » بعد أيام قليلة :

« يجب أن تعمل اليوم مدة أطول ، عليك أن تدبر اثنين من عاملات الاختزال على الآلة الكاتبة ليظلا معنا لأننا مكلفون بترجمة مهمة » . تلقيت نصا روسيا مكنوبا على الآلة الكاتبة لترجمته ، وطلب منى « آكارمان » أن أرسل له أولا بأول كل صفحة بمجرد الانتهاء من ترجمتها . كان هذا النص هو مشروع قانون الاصلاح الزراعى .

ينص مشروع القرار على ضرورة الاستيلاء على كل أملاك الاقطاعيين الزائدة على مائة هكتار (الهكتار يساوى ثلاثة أرباع الفدان) بكل ما عليها من مباني ، وما فيها من آلات وحيوانات ، ومصادرة كل أراضى مجرمى الحرب ، والمسؤولين فى الحزب النازى ، وتضم أيضا الأراضى التابعة للدولة الى الاصلاح الزراعى ، اذا لم تكن تابعة لمعاهد الأبحاث الزراعية ، أو مراكز تعليمية ، أو حقول تجارب .

ولا يسرى قانون الاصلاح الزراعى على المساحات التابعة لإدارة المدينة وتكون لازمة لتكوين سكانها ولا على الأراضى التابعة للمجالس المحلية فى المقاطعات ، ولا على أراضى الجمعيات التعاونية ، والمدارس الزراعية ، كذلك لا يسرى على أراضى المؤسسات التابعة للكنيسة .

ويتولى تنفيذ قانون الاصلاح الزراعى لجان محلية فى القرى ، يجرى انتخابها فى اجتماع عام للعمال الزراعيين ، والمعدمين والفقراء من الفلاحين . ويرأس لجنة المركز مدير الاقليم أو نائبه . ويبدأ تنفيذ القانون بعد اعلانه مباشرة ، وتنتهى اجراءات تنفيذه فى أكتوبر سنة ١٩٤٥ م .

(١) من المسلم به أن موافقة الفلاحين فى القرية الصغيرة الواقعة بين « كيريتس » وبين برلين لم يكن له تأثير اطلاقا على قانون الاصلاح الزراعى ، لأنه كان قد اتخذ فيه قرار مبدئى . اذ أن من طابع « الستالينية » أن يسمع رأى « الشعب » بطريقة أو بأخرى ، قبل تنفيذ الاجراءات التى تقرر تنفيذها قبل عملية سماع الآراء .

خطر ببالي وأنا أترجم مشروع القانون أن التقديرات كانت « سليمة » نسبيا ، فحين علمت في الأسبوع الأول من يونيو أن قانون الإصلاح الزراعى سينفذ في عام ١٩٤٥ م بدأت أجمع كل المعلومات عن الإصلاح الزراعى في بولندا والمجر ورومانيا ويوغسلافيا . الخ . وكتبت مقالات عديدة عن هذا الموضوع في « جريدة الشعب الألمانية » والناطقة بلسان الحزب الشيوعى الألمانى ، فالحد الأقصى للملكية الزراعية في بولندا ورومانيا خمسون هكتارا ، وفي بلغاريا ويوغسلافيا ٣٥ هكتارا ، فأوضح الفرق في التحديد أننا لم نجبر على اتباع نموذج موسكو ، بل استطعنا أن ننهج سياسة أسست طبقا لظروف البلد الخاصة . ولم يغير من رأى هذا ، أن قانون الإصلاح الزراعى ترجم من اللغة الروسية ! فقد اقتنعت آنذاك — أما اليوم فلا ! — أن القانون من عمل رفقاءنا الألمانين ، ثم أعطوه لسلطة الاحتلال لبحثه ، وهناك ترجم الى الروسية ، وأنا أعيد ترجمته الى الألمانية .

رأيت النص الذى ترجمته مرة أخرى في سبتمبر ثمانونا تحت عنوان : قانون الإصلاح الزراعى في مقاطعة « زاكسين » ، وتبع ذلك صدور قوانين مشابهة للمقاطعات الأخرى في المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى . انعقد اجتماع آخر للجنة المركزية بعد أسبوعين من صدور قانون الإصلاح الزراعى ، ودعيت أيضا لحضور هذا الاجتماع . وكان الجهاز لا يزال آنذاك صغيرا ، فسار كل شئ سهلا دون تعقيد روثنى .

كان عدد المجتمعين في صالة اجتماعات اللجنة المركزية يتراوح بين ٢٥ — ٢٦ قياديا ، جلسوا حول منضدة ، وضعت في الوسط ، وجلس على رأسها « فيلهيلم بيك » و « فالتر أولبريخت » وحضر من « زاكسين — انهالت » « برنارد كونين » ومن « ميكلينبرج » « هيرمان ماتيرن » . ولم يحضر من القياديين السابقين — الذين انضموا في هذه الأثناء الى العاملين في الادارة المركزية — سوى « ادفين هورنل » و « باول فانديل » .

كان الموضوع الرئيسى في جدول الأعمال هو الإصلاح الزراعى . ألقى الواحد بعد الآخر تقارير عن الوضع في المقاطعات المختلفة ، وكان الحديث مفتوحا آنذاك في هذا الوسط ، فأمكن للمرء أن يأخذ صورة هون رتوش ، سواء أكانت عن تلك المناطق التى نفذ فيها الإصلاح

الزراعى بنجاح ، أو عن الشوائب والأخطاء ، ونقاط الضعف التى ظهرت عند التنفيذ •

تحولت الجلسة بعد ساعتين الى حوار ، انتهى « برنارد كونين » من تقريره عن الاصلاح الزراعى ثم قال : « وأخيرا أود أن أبدى رجاء هاما يتعلق مباشرة بتنفيذ قانون الاصلاح الزراعى ، ففى شركة « لوينا »^(١) تقرر ازالة آلات عنبرين لهما أهمية كبيرة فى تجهيز السماد ، وأحب أن أسأل عما اذا كان من الممكن استثناء هذين العنبرين من قرار الازالة !

فقاطع « أولبريخت » قائلا : « لا شأن لنا هنا بمسألة فك الماكينات » •

— « ولكنى أود أن أشير هنا الى أهمية هذا الانتاج بالنسبة للاصلاح الزراعى ، وقد اتخذت كل الاحياطات لمنع انتاج المواد الحربية ، ولو كانت غير مباشرة وتعمت للعمال فى الاجتماعات » •

قاطع « أولبريخت » بنغمة حادة : « لقد قلت : ان هذه المسألة ليست من اختصاصنا » •

ولكن لم ينثن « برنارد كونين » عن عزمه ، واستمر فى اصراره على بحث الموضوع قائلا :

« هذا لا يمكن ، يجب أن نصل هنا الى حل فى هذه المسألة ، لقد وعدت العمال بأن أبذل كل ما فى وسعى لابقاء كلا العنبرين اللذين ليس لهما علاقة بالانتاج الحربى » •

ولكن لم يتركه « أولبريخت » حتى ينتهى من كلامه ، اذ رفع صوته مهتدا : « أنا لا أحب أن أسمع شيئا عن هذا الموضوع بعد الآن • سوف نتحدث فيه معا على مستوى آخر » •

فصمت « برنارد كونين » وكان للتهديد أثره ، فلم يسمع شئ عن عنبرى شركة « لوينا » بعد هذا اليوم •

استمرت الجلسة ، ولكن هذا الحوار حفر فى ذاكرتى قنوات • وكما حدث فى عام ١٩٤٢ م فى عملية النقد الذاتى ، وقرار طرد الرفيق « فيلى » من مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، وفى مايو سنة

(١) كانت احدى شركات الانتاج الحربى فى عهد «هتلر» ، فقررت سلطات الاحتلال فك ماكيناتها ، وتعطيل الشركة عن الانتاج • م شامة •

١٩٤٥ م عند لقاء « أولبريخت » بالشيوعيين في برلين ، كنت هنا أيضا بجانب القيادي الذي شعر بأنه مرتبط بحياة العمال ، وليس في جانب المسئول في الجهاز الذي ينفذ فقط الأوامر التي تصدر من الجهات العليا .

كان موضوع الإصلاح الزراعي في خريف عام ١٩٤٥ م هو العمل الرئيسي في حقل نشاطنا ، فمنذ منتصف أغسطس والاجتماعات تعقد يوميا لمناقشة هذا الموضوع ، وبعد أن جهز قياديونا — أو كما كنا نسميهم « قوادنا » — بالتعليمات والارشادات ، عقدت في كل القرى ، والكفور مؤتمرات للعمال الزراعيين وصغار الفلاحين ، وكان الشعار الأول هو : « أرض ذرية الاقطاعيين في يد الفلاحين » واستخدمت كلمة « جوتة » : « قف مع الشعب الحر على أرض حرة » في حملة الدعاية للإصلاح الزراعي ، فانهاالت علينا قرارات المؤتمرين التي تطالب بتوزيع الأرض على الفلاحين .

بلغت موجة المؤتمرات ذروتها في نهاية أغسطس ، ثم أعلن في سبتمبر سنة ١٩٤٥ تنفيذ قانون الإصلاح الزراعي ، فدخلت الاجراءات مرحلة جديدة ، اذ لم يعد الأمر يتعلق بالدعاية له ، بل بتنفيذ ما جاء فيه . انتهت مهمة قسم الدعاية السياسية عند هذا الحد ، فمسألة تنفيذ قانون الإصلاح الزراعي ، هي في المقام الأول من اختصاص قسم الزراعة ، وقسم التنظيمات في الحزب .

ومن العجيب أن اجراءات توزيع الأراضي انتهت في زمن قصير ، فقد أعلن « ادفين هورنل » في ٥ سبتمبر باسم الادارة الألمانية لشئون الزراعة والغابات ، أنه قد تم توزيع أراضي كبار الملاك . وذات يوم — للأسف نسيت التاريخ — استدعاني « أولبريخت » : « سيعقد اجتماع في « كارلسهورست » ، وسيشارك فيه رؤساء وزارات المقاطعات ، ورؤساء الادارات المركزية . وأرجو أن تحضر هذا الاجتماع ، وتدون ملاحظات ، ثم تكتب لي تقريراً مفصلاً ما أمكن ، وتعطيه لي في المساء » . ثم أعطاني بطاقة شخصية ، وقدمني لضابط الاتصال السوفييتي .

— « سنتحرك من هنا غدا في الساعة التاسعة صباحا ، الى « كارلسهورست » .

وبعد أن تخطينا نقط رقابة متعددة ، واجترينا حواجز ، قادني ضابط سوفييتي الى قاعة الاجتماعات . وعندما دخلت القاعة كانت الجلسة قد بدأت . جلس على منصة الرئاسة المارشال « شوكوف » وحوله خمسة أو ستة جنرالات روسيون ، كانوا — كما فهمت من المناقشة — المفوضين للسوفييت في لمقاطعات والمراكز . واشترك في هذا الاجتماع عدد يتراوح بين ٣٠ و ٤٠ شخصا ، من بينهم رئيس وزراء مقاطعة « زاكسبز » السابق ، والدكتور « فريدريش » وألقى تقريراً مفصلاً بالخبرات والتجارب بهدوء ووضوح ، ورئيس وزراء « تورينجن » السابق الدكتور « باول » الذي هرب الى الغرب في عام ١٩٤٧ م ، وعمدة برلين السابق الدكتور « فيرنر » واشترك من رئاسة الادارات المركزية « باول فاندل » وكان مختصاً بالثقيف الشعبي ، و « ادفين هورنل » وكان مسئولاً عن الزراعة .

وبعد دقائق قليلة من دخولي القاعة قام رئيس وزراء إحدى المقاطعات ليلقي تقريره :

— « لا أحب أن أبدأ بالقاء تقريرى قبل التعبير عن الشكر للجيش السوفييتي الشجاع ... »
فقطعه المارشال « شوكوف » :

— « دع هذا من فضلك ، فلسنا هنا في مؤتمر عام ، أرجوك ألا تخرج عن موضوع تقريرك ، حتى نستطيع أن نصفى هذه الأشياء » .
بلغ رئيس الوزراء يقيه ، وانكمش . وكنت مندهشاً أيضاً ، فلم أشهد في مجتمع قط مقاطعة انسان أراد مدح الجيش الأحمر . وسرعان ما تمالك رئيس الوزراء نفسه ، وتنازل عن الاستمرار في المديح .
أنصت « شوكوف » وجرالاته باهتمام ، وكان يلقي أسئلة بين الحين والآخر ، وغالباً ما كان يسأل هذا السؤال :

« هل تقترح شيئاً معيناً لازالة هذه العيوب » ؟

وبعد أن انتهى رؤساء الوزارات من القاء تقاريرهم ، طلب من رؤساء الادارات المركزية بدء آرائهم .

— « سيكون من الافضل ، لو ناقشنا الاحتياجات التى عبر عنها رؤساء انوزارات في بياناتهم » -

ومن الطبيعى أنهم تحدثوا بتفصيل مسهب عن الاصلاح الزراعى ، وهنا سأل « شوكوف » سؤالا سياسياً :

— « هل تستطيع أن تعرفنى بالتقريب ، كيف تكونت لجان تنفيذ هانون الاصلاح الزراعى ، وأى الأحزاب أكثر نشاطا ، وأيها أقل نشاطا فى تأييد الاصلاح الزراعى ؟ » وكانت الاجابة كما توقعت :

« يمثل الشيوعيين أكبر عدد فى اللجان ، ثم يأتى بعدهم الديمقراطيون الاشتراكيون ثم المستقلون ، أما ممثلو حزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى ، والحزب الديمقراطى الليبرالى فعددهم قليل . وفى كثير من المناطق لا يبدون أى حماس أو نشاط » .
خيم السكون لحظة ثم قال المارشال « شوكوف » مبتسما :
« حسنا .. استمر » !

تحدث أحد رؤساء الادارات المركزية عن أن فى ادارته مجموعة من الموظفين ، لديهم خبرة واسعة فى تخصصاتهم ، ولكنهم يرتكبون أخطاء نتيجة الارتجال فى العمل .

فابتسم المارشال « شوكوف » ابتسامة سخرية ، ولكنها لم تكن ملاحظة سيئة النية على الموظفين البروسيين .

ثم أعلن عن المتحدث التالى ، وكان « فرديناند فريدينسبرج » رئيس الادارة المركزية لصناعة مواد الوقود ، فخطى الى المنصة بخطوات ثابتة ، ثم بدأ حديثه :

« على الرغم من أنى عضو فى ذلك الحزب الذى ذكر عنه قبل لحظات أنه لم يبد نشاطا فى الاصلاح الزراعى مثل الحزب الشيوعى ، وعلى الرغم من الملاحظة الساخرة على الموظفين البروسيين ، أحب أن أثير هنا بوصفى موظفا بروسيا سابقا » .
فنظر المارشال « شوكوف » باندھاش .

قال الدكتور « فريدينسبرج » هذه الجملة بهدوء وواقعية . وعلى الرغم من أنى كنت متفقا تماما مع رأى المارشال « شوكوف » فى حزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى وفى الموظفين البروسيين ، فقد كنت معجبا بشجاعة الدكتور « فريدينسبرج » فقد أثر فى نفسى أكثر من أولئك الناس — وللأسف لم يكن عددهم قليلا — الذين لم يستطيعوا منع أنفسهم من نفاق رجال السلطة السوفييتية آنذاك ، بينما هم اليوم يعبرون عن الحق والكراهية لهم .

ألقى الدكتور « فريدينسبرج » تقريراً وافياً عن وضع صناعة مواد الوقود ، وقال في ختام تقريره :

« أحب أن ألفت نظر السيد المارشال الى الصعوبات التي تعترض عملنا ، سيلحق الضرر انتاج صناعة مواد الوقود بسبب أن الحكمداريين لا ينفذون التعليمات الثابتة ، ويصدرون بدلها تعليمات أخرى » .
فسأله المارشال « شوكونف » :

— « أى الحكمداريين ؟ هل تقصد حكمداريى المنطقة » ؟
— « لا .. أقصد العسكريين السوفييت المكلفين فى المصنع ، الذين يسمون أنفسهم حكمداريون ، ويتصرفون تصرف الحكمداريين » .
— « يا سيد « فريدينسبرج » .. سنعمل كل شئ لمنع معاكسة الموظفين السوفييت فى منطقة عملك ، حتى نضمن تطور صناعة مواد الوقود طبقا للخطة المرسومة ، وسوف أطلب معلومات كافية عن تصرف انحكمداريين فى المصنع » .

وعندما سمعت هذا ، فكرت فى هذا الوعد ، فأنا لا أشك فى نيته الصادقة ، غير أنى أعرف تكوين نظام الحكم السوفييتى معرفة تكفى لأن أعلم أن هناك ادارات لا تخضع لأوامر المارشال « شوكونف » ، بل تخضع مباشرة للإدارة الاقتصادية فى موسكو ، وعلمت أيضا عن تطاحن الإدارات السوفييتية مع بعضها فى إصدار التعليمات وتنفيذها .
كنت قبل هذا ببضعة أيام فى سيارة ضابط سوفييتى من الإدارات السياسية الرئيسية للجيش الأحمر ، وكنا نسير فى المنطقة السوفييتية فى برلين فقال لى : « هنا يسكن أعداؤنا » وأشار الى منازل فى مستعمرة جديدة .

— « من .. النازيون ؟ »

— « لا .. أسوأ من هؤلاء ! قوات التطهير السوفييتية » .



الكراريسر الثقافية

استدعانى « فرانس داليم » فى النصف الثانى من أكتوبر سنة ١٩٤٥ م :

— « أوضح لى « فريد أولسنر » أن قسم التثقيف الحزبى عندنا فى موقف حرج ، فقد عينوا رفيقا لتجهيز المادة العلمية الأسبوعية ، ولكن

يبدو أنه لم يتقدم في هذا العمل ، وينبغي أن تجهز الكراسة التالية في ظرف ستة أيام . هل تستطيع — بصفة استثنائية — كتابتها ؟
— « في أي موضوع » ؟

— « عنوان الموضوع : في الذكرى الثامنة والعشرين لثورة أكتوبر » .

— « حسنا .. سوف أجهزها » .

كتبت الكراسة التعليمية المطلوبة ، دون ادراك لنتيجة هذه « المساعدة الخارجة عن دائرة عملي » ، وألقيت محاضرة ارشادية على القائمين بالتدريس في أنظمة الحزب في برلين .

وبعد أن انتهيت من كلا العملين على وجه مرض ، تقرر خط سير عملي في الحزب مؤقتا : فقد تركت عملي — ابتداء من هذا اليوم — كنائب لرئيس قسم الصحافة في اللجنة المركزية ، وعينت محررا مسئولا عن المواد الثقافية في الحزب .

كانت قيادة العمل الثقافي كله في الحزب في يد « فريد أولسنر » الذي جاء الى برلين في أوائل يونيو ١٩٤٥ م مع « فيلهيلم بيك » . كنت قد قابلت « فريد أولسنر » في موسكو ، وكان معروفا بالاسم الحركي « لاريف » ، وكان رئيس هيئة تحرير الاذاعة الألمانية في راديو موسكو . ودرس — مثل « آكارمان » — في مدرسة « لينين » في موسكو .

ظهرت سلسلة المحاضرات — التي عرفت في دوائر الحزب باسم الكراسة التعليمية ابتداء من يونيو بدقة وفي مواعيد مضبوطة ، مدهشة بالنسبة للظروف في ذلك الوقت ، فكانت تصل الى أيدي أنظمة الحزب في المواعيد المحددة . وفرض على كل وحدات الحزب في المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتي ، عقد ندوات ثقافية في مساء كل ثلاثاء لدراسة هذه الكراسة . وقبل أن ينعقد مؤتمر « بوتسدام » ، وقبل أن يدرك الحلفاء الغربيون ، ما ينبغي عمله في ألمانيا ، درس مئات الآلاف من أعضاء الحزب الشيوعي في المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتي مسائل سياسية معينة أسبوعيا أو — كما كان يقال آنذاك — وضعوا على الخط الصحيح .

كان الحديث مع « فريد أولسنر » عن عملي قصيرا :
— « يتلخص عملك في تجهيز مسودة الكراسة الثقافية أسبوعيا في الموعد المحدد » .

— « ومتى أعرف الموضوعات ؟ »

— « سوف يتفق عليها في اجتماع مشترك مع « أكارمان » وستحضر أيضا هذا الاجتماع ، وسيكون ذلك قبل البدء باصدار سلسلة الكراسات بعشرة أيام » •

فرض على أن أكتب أسبوعيا في موضوع ثقافي جديد ، وكانت الموضوعات متنوعة ، فقد كتبت عن نشاط الحزب في الريف ، والجمعيات التعاونية الاستهلاكية والسياسية والتموينية ، ومساواة المرأة ، واصلاح التعليم ، وبناء أجهزة احزب ، والنضال ضد العسكرية الرجعية البروسية •

نظمت العمل بعد أسابيع قليلة ، اذ قيمت وفهرست كل الكتب والبحوث والمواد العلمية : والجرائد التي تصدر ، حسب الموضوعات ، التي يمكن أن يكتب ذات يوم عنها في الكراسة الثقافية • وبنفس النظام والفهرسة فعلت أيضا بالنسبة للنصوص التي اقتبست من مؤلفات « ماركس » و « انجلز » و « لينين » و « ستالين » و « فيلهيلم ليبكنيث » و « أوجست بييل » و « كارل ليبكنيث » و « روزا لوكسمبرج » ويستفاد منها في المسائل التي تعالج في الكراسة الثقافية ، لدرجة أني كتبت أستطيع استخراج النص المطابق للموضوع الذي أكتب فيه من المراجع الكلاسيكية « للماركسية — اللينينية » •

وسرعان ما تعودت على هذا العمل ، حتى أن الكراسة كانت تذهب الى المطبعة بعد تعديل بسيط جدا ، أو بدون تغيير اطلاقا • ولم يحدث اعتراض من الرقيب الا مرة واحدة ، ولم يكن بسبب تعبيرى الخاص ، بل كان يتعلق بنص استشهدت به من « ماركس » ، فقد كان الموضوع : مساواة المرأة • وبعد أن كتبت الرأى المعاصر ، حاولت البحث عند « ماركس » عن نص يدعمه ، فوجدت جملة في خطاب أرسله « ماركس » الى « كوجيلمان » في ديسمبر سنة ١٨٦٨ م :

« يقاس التقدم الاجتماعى بوضع الجنس اللطيف في المجتمع ، واحتوائه مع الجنس القبيح » •

كنت جالسا في اليوم التالى مع « أولسنر » بعد الانتهاء من اعداد الكراسة ، فقال وهو يقطب جبينه . « وقعها غريب على السمع » • — « هذه من « كارل ماركس » ولا يمكن تغييرها » •

لم تأت هذه الحجة بنتيجة ، فقد تناول « أولسنر » القلم وشطب على جملة « واحتوائه مع الجنس القبيح » .
أصبح « أنتون آكارمان » بعد وقت قصير . هو الرقيب المسئول ، وهو ألطف رقيب قابلته حتى ذلك الحين ، ولما كان من المفروض أن تسلم الكراسية يوم الاثنين صباحا الى المطبعة ، فقد أصبح من العادات المألوفة أن أزور « آكارمان » في « فيلته » في « نيدرشونهاوزن » ، وأتناول معه طعام العشاء ثم يقرأ الكراسية ويصرح باطبع موقعا عليها بالحرفين « أ . أ » .

ثم يأتى الى في صباح الاثنين مندوب من دار نشر « ديتس » ويتناول المسودة فيضع عليها تأثيرات الطباعة أمامى ، ثم يكتب في أعلاها على الجانب الأيسر ١٢٠٠٠٠ ، وهو العدد الذى كان يطبع آنذاك من الكراسية الثقافية .

وبجانب الكراسية الثقافية في مساء الثلاثاء ، فقد فتحت أيضا في خريف عام ١٩٤٥ م مدارس الحزب الريفية الأولى في « ميكلينبرج » و « براندينبرج » و « زاكسين — أنهالت » و « زاكسين » و « تورينجين » و « برلين » وكان معظمها في قصور الاقطاعيين السابقين .

تتقف عدد يتراوح بين ٦٠ و ٨٠ دارسا في هذه المدارس الليلية في دورة دراسية كانت تستغرق أسبوعا . فلو زرت في تلك الأيام « أنتون آكارمان » في مكتبه لرأيت منحنيا على خريطة للمنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، وقد صلب بالخط الأحمر على أماكن عدة فيها . فقد كان الأمر يتعلق بالبحث عن مبانى مناسبة لمعاهد الحزب العليا المركزية ، التى وضعت خطة انشائها . وطلب من كل أنظمة الحزب في المقاطعات أن يبلغوا اللجنة المركزية عن القصور أو المبانى التى تتناسب مع هذا الهدف . وأخيرا عثرنا في « ليبينفالد » — وهى تبعد حوالى ٣٥ كيلومترا شمال شرق برلين — على مبنى مناسب ، وأمكنا — فعلا في نهاية عام ١٩٤٥ — بدء العمل أيضا في معهد الحزب العالى . كذلك أنشأت الادارة العسكرية السوفييتية — بالاضافة الى مدارسنا — مدرسة سياسية كبيرة في « كونيغسفوسترهاوزين » وكان مدرسوها ، ورواد قاعات البحث فيها من الضباط السوفييت ، وعينت معهم مدرسة هى « لينى بيرنر » التى كتبت معها في عام ١٩٤٢ م في مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية . لم تتضمن هذه المدرسة رسميا

الى الحزب ، وكان من بين تلاميذها كثير من القياديين الشبان في حزب الاتحاد الديمقراطي المسيحى ، والحزب الديمقراطى الليبرالى • وكانت رغبة القيادة السوفييتية — على ما يبدو — تكوين قاعدة ثابتة لسياسة التحالف ، ولكن فى نفس الوقت محاولة التأثير على قيادى حزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى ، والحزب الديمقراطى الليبرالى بطريقة غير مباشرة ، وتحويلهم الى الاتجاه المطلوب •

كانت مقررات الندوات الثقافية 'الأسبوعية المسائية مختلفة عن مقررات مدارس الحزب المطبق فيها نظام المدارس الداخلية ، غير أنه كانت هناك وحدة بينهما : فقد اهتمت الندوات المسائية السياسية ، بتحويل الثقافة السياسية عند أعضاء الحزب الشيوعى الألمانى القدامى الذين رجعوا الى حزبهم بعد عام ١٩٤٥ م ، وتوجيههم الى « الخط الجديد » ، وتهيئتهم للقيام بواجباتهم الجديدة ، كما هيأت قوى الشباب الجديدة التى تدفقت على الحزب الشيوعى سياسيا ، وغرست فى أفكارهم مبادئ الحزب ، وكانت مهمة مدارس الحزب — المطبق فيها نظام المدارس الداخلية ، وكان عدد الدارسين فيها يزداد باستمرار — اعداد القياديين الجدد فكريا وسياسيا •



رأى « آكارمان » المنقذ

عندما كنت فى مساء أحد أيام الآحاد عند « أنتون آكارمان » فى « نيدرشونهاوزن » لاحظت أنه يسرح أثناء قراءة الكراسة الثقافية ، وظهر عليه التوتر العصبى من شدة الفرح ، كان فكره فى ناحية أخرى ، وبعد أن انتهى من قراءة المسودة ، وأعطى الاذن بالطبع ، بدأ يتحدث عما استولى على مشاعره آنذاك — وليس فقط آنذاك — كلية •

نحن على أبواب تشكيل جديد هام « لمبادئنا الرئيسية » ، ثم تحدث عن الوضع الجديد بعد الحرب العالمية الثانية ، وعن امكانية انتهاز طريق جديد الى الاشتراكية ، وعن البحث عن طرق خاصة الى الاشتراكية على أساس الارتباطات الجديدة ، مختلفة عما كان فى روسيا بعد ثورة أكتوبر • كان « آكارمان » قد كتب فى فبراير سنة ١٩٤٥ حديثا لاذاعة « ألمانيا الحرة » فى موسكو تحت عنوان : « ثمانى دول — مذهب واحد » ، ونشر فيما بعد أيضا فى جريدة اللجنة الوطنية ، ومما جاء فيه :

« البلشفية نظام سياسى داخلى للاتحاد السوفييتى ، ويمكن أن تختلف الآراء حول هذا النظام الاجتماعى » .

ثم بالنسبة للنظرة الى دول شرق وجنوب شرق أوروبا :
« فالتطور فى تفصيلاته متفاوت جدا فى الدول المختلفة ، ويشير هذا بالذات الى ضرورة عدم تأثير سلطة دولة أجنبية فى تحديد الاتجاه » .
والآن .. فى نوفمبر سنة ١٩٤٥ ، يحاول « آكارمان » تهذيب اشارته السابقة الى المبدأ الرئيسى للحزب ، حول امكانية اتخاذ طريق المانى خاص الى الاشتراكية ..

قرأ على مسودة مقال مكتوبة بخط اليد ، كان قد انتهى من كتابة نصفه فى هذا المساء .

كانت نقطة انطلاق « آكارمان » أن « كارل ماركس » حصر قيام فترة الانتقال الثورية الى الاشتراكية فى دول القارة ، أما فى انجلترا وفى أمريكا ، فكان يرى أن المرحلة الانتقالية الى الاشتراكية مرحلة سلمية ، لأن أسلوب الحكم الديمقراطى الوطنى فى هاتين الدولتين لا تسيطر عليه عسكرية متطرفة ، ولا « بيروقراطية » كبيرة . فخرج « آكارمان » من هذا بنتيجة ، هى أن من الخطأ انكار امكانية المرحلة الانتقالية السلمية الى الاشتراكية « تحت كل الظروف ، وفى كل الدول ، وفى كل العصور » :
« اذن .. فهذه المرحلة الانتقالية ممكنة بالطريق السلمى نسبيا ، لو لم تتصرف الطبقة « البورجوازية » تحت ظروف خاصة فى سلطة الدولة العسكرية والبيروقراطية ... » .

كانت هذه الأفكار جديدة على مفاهيم أعضاء وقيادى الحزب الشيوعى الألمانى . ولم يكن النص الذى استشهد به من « ماركس » و « انجلز » حتى ذلك الحين معروفا فى الاتحاد السوفييتى ، ولا عند أعضاء الحزب الشيوعى الألمانى القدامى ، فلم يظهر فى المحاورات السياسية ، ولا فى الدراسات النظرية ، حتى لم نتحدث نحن عنه فى مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية فى عام ١٩٤٢ م ثم بين « آكارمان » أن ظروف ألمانيا بعد عام ١٩٤٥ مهية لمثل هذا التطور السلمى :

« .. فلو تحولت الدولة الديمقراطية الجديدة الى أداة سيطرة جديدة فى يد القوى الرجعية ، لأصبحت المرحلة الانتقالية السلمية الى الاشتراكية غير ممكنة ، ولكن اذا تحولت الجمهورية الديمقراطية

المناهضة للفاشية ، الى دولة كل العاملين تحت قيادة الطبقة العاملة ، فيكون الطريق السلمى الى الاشتراكية ممكنا مائة في المائة .. لا أحد يتمنى أكثر منا في أن يتفادى النضال الجديد اراقة دماء جديدة » .
وتحدث في آخر جزء من مقاله عما كنت أفكر فيه منذ زمن بعيد ، ولكن لم يسمح لى بالتعبير عنه صراحة وهو : أن من الضروري أن نسلك طريقا مستقلا الى الاشتراكية يختلف عن طريق روسيا ، فقد قرأ « آكارمان » وهو يبتسم ابتسامة عريضة :

« لم يشدد أحد غير « لينين » على أن من الخطأ الفاحش المبالغة في حقيقة عمومية شرعية التجربة الروسية ، وبسطها « بأكثر من المبادئ الأساسية لثورتنا (يقصد اثورة الروسية) .. وطبقا لهذا المفهوم يجب أن نوافق على اتخاذ طريق ألماني مستقل الى الاشتراكية » .
أشار « آكارمان » — وان كان ذلك بأسلوب حذر نسبيا — الى تباين التطور الاشتراكي في ألمانيا عنه في روسيا ، « فروسيا كانت في عام ١٩١٧ م متخلفة جدا عن الدول المتقدمة ، وكان انتاج العمال منخفضا نسبيا ، وتطور الصناعة ضعيفا ، وعدد القوى العاملة ضئيلا . ولكن على العكس من ذلك في ألمانيا ، اذ يمكن أن يصل الانتاج في ألمانيا الى مستوى عال بسرعة ، ويوجد عدد كبير من القوى العاملة المؤهلة ، ولا وجه لمقارنته بما كان عند روسيا في عام ١٩١٧ م .
ويمكن أن يكون لهذا التباين أثره ، فما سقط من ضحايا في روسيا في طريق بناء الاشتراكية ، لن يقع عندنا الا بنسبة ضئيلة جدا نسبيا . وسوف يرتفع مستوى المعيشة الاشتراكية تحت ظروف خاصة بسرعة عندنا » .

« وتختلف ألمانيا عن روسيا في عام ١٩١٧ م في أن الطبقة العمالية في ألمانيا تمثل أكثرية مجموع السكان .
» وسوف يكون لهذا أهمية كبيرة بعد انتصار الطبقة العاملة في ألمانيا ، لأنه يسهل النضال السياسى الداخلى ، ويقلل من عدد الضحايا ، ويعجل بالديمقراطية الاشتراكية » .

تناقشت كثيرا مع « آكارمان » حول موضوعات سياسية ، ولكن لم أشعر قط أن الأفكار والآراء التى عبر عنها في هذا المقال تختلط بمشاعره كانت هذه هى نفس حالتى ، فالأفكار التى كتبها الآن « آكارمان » كانت تدور بذهنى منذ وقت طويل . لقد كانت أمنية منذ زمن بعيد.

أن البلاد الأخرى ينبغي أن تسلك طريقا الى الاشتراكية غير طريق الاتحاد السوفييتى • والآن التزم « آكارمان » بأن يكتب ذلك فى مقال ينشر فى مجلة رسمية تنطق بلسان الحزب وهى « الوحدة » ، وينبغى أن يكون ذلك هو الخط الرئيسى للحزب !

دفعنا التغيير الرسمى لخط الحزب فى هذه المسألة الهامة الى أن نرى أشياء كثيرة بصورة مختلفة تماما عن التى رأيناها بها قبل التغيير : فاعتداء الجيش الأحمر على النساء عند الاحتلال ، وفك آلات المصانع ، والرقابة السياسية بواسطة الضباط السوفييت — كل هذا كان بالنسبة لنا مظاهر وقتية لفترة انتقالية تستمر أعواما غير محددة • فهى بلا شك تصينا بأضرار ولكننا سوف نتغلب عليها فيما بعد • ثم ! — هكذا كان أملى واعتقادتى آنذاك — سيأتى اليوم الذى ستسحب فيه سلطة الاحتلال ، وعندها يستطيع الاشتراكيون الألمان أن يشقوا طريقهم الى الاشتراكية دون وصاية أجنبية ، طبقا لتقليدهم وظروفهم الخاصة •

رجعت الى سكنى فى « بانكوف » فى الساعة الرابعة صباحا وأنا مفعم بهذه الآمال الجديدة • أخيرا — هكذا بدا لى — سيتحقق ما كنت أريده دائما : طريق مستقل الى الاشتراكية ، دون المظاهر التى ألمتتى فى معظم الأحيان فى الاتحاد السوفييتى •

وبعد أسابيع قليلة — فى ديسمبر سنة ١٩٤٥ — ظهر مقال لـ « آكارمان » تحت عنوان : هل يوجد طريق ألمانى مستقل الى الاشتراكية ؟

كان للمقال دوى القنابل ، فقد قوبل — باستثناء عدد ضئيل من القياديين المخلصين لموسكو ، الذين يعارضون كل فكر جديد — بارتياح عام من الرفقاء ، والآن — هكذا بدا لى — أخيرا وجد طريق • لم نتبرأ علنا من اجراءات سلطات الاحتلال السوفييتية ، ولكن ظهر شيء آخر كان أهم وأعظم : انفصال مبدئى عن التطور فى الاتحاد السوفييتى • وبدأ رأى « آكارمان » يكتسب أصواتا بين مستويات الحزب المختلفة •

بدء حملة الوحدة

نُعت نظرية الطريق الألماني المستقل إلى الاشتراكية دورا هاما — وخاصة عند القياديين — في حملة الدعاية للوحدة في المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتي ، فقد رغب في عام ١٩٤٥ م كثير من الديمقراطيين الاشتراكيين والشيوعيين — تحت تأثير التجارب المريعة مع الديكتاتورية الفاشية — في التغلب على الانقسام في الحركة العمالية ، بتأليف حزب اشتراكي يكون أحسن من الحزب الديمقراطي الاشتراكي والحزب الشيوعي اللذين كانا في عهد الجمهورية الفاييمرية . التحمت نظرية « الطريق الألماني المستقل إلى الاشتراكية » بهذه الفكرة ، وفهمتها الزعامة السوفييتية آنذاك على أنها أسلوب جديد لتبديد مخاوف الديمقراطيين الاشتراكيين (ولم تكن مخاوف الشيوعيين أقل) الذين كانوا يخشون الارتباط الأساسي بموسكو .

رفض « أولبريخت » بعد تأسيس الحزب الديمقراطي الاشتراكي والحزب الشيوعي مباشرة كل الاقتراحات التي تطالب بتكوين حزب اشتراكي موحد ، بحجة أنه يجب أن يقوم اتحاد تنظيمي قبل ذلك ، بتوضيح المسائل الأيديولوجية . ثم يحين بعد ذلك دور كلا الحزبين في تكوين جهازهما التنظيمي . ومما لا شك فيه أن حالتنا في الحزب الشيوعي كانت أحسن ، فقد أسسنا منظماتنا في المدن والقرى قبل الحزب الديمقراطي الاشتراكي ، وامكانياتنا كانت أكبر ، وعدد توزيع جريدتنا أعلى ، وعندنا — وكان ذلك شيئا هاما جدا آنذاك بالنسبة لتأسيس المنظمات — سيارات كثيرة ، نستطيع بها أن نتصل بالوحدات المحلية بطريقة أسرع .

لم تقتصر الحماية السوفييتية على تقديم المساعدات الفنية بكميات كبيرة ، بل كان الحزب الشيوعي مفضلا أيضا سياسيا عند سلطة الاحتلال . ومن ناحية أخرى فقد تدخلت الإدارة السوفييتية أيضا تدخلا مباشرا في الشؤون الداخلية للحزب الديمقراطي الاشتراكي ، كي تخدم عن طريق الضغط السياسي والاجراءات المخوفة كل أصوات المعارضة المستقلة .

كانت العلاقات مع الحزب الديمقراطي الاشتراكي الذي لم يزل في فترة التكوين متباينة ، فعلى المستوى المركزي تكون مجلس عمل مشترك

في يونيو سنة ١٩٤٥ أى بعد اعادة تأسيس الحزبين مباشرة كما تكونت مجالس مماثلة أيضا في بعض القرى •

وكانت العلاقات في بعض القرى والمراكز والمقاطعات علاقة زمالة ، أو علاقة صداقة ، ووجد في بعضها الآخر توتر بين أعضاء الحزبين ، وأحيانا جو عدائى ، لأن الديمقراطيين الاشتراكيين لاحظوا في حالات لا حصر لها انحياز سلطات الاحتلال السوفييتى الى جانب الحزب الشيوعى •

ورغم هذا فقد ظهر أن الحزب الديمقراطى الاشتراكى تطور بأسرع مما توقعته زعامة الحزب الشيوعى الألمانى في يونيو سنة ١٩٤٥ م • استمرت مسافة تقدم الحزب الشيوعى في نقص مستمر ، ففى الجهات التى كان يوجد فيها الحزب الديمقراطى الاشتراكى كان يتحول اليه باستمرار أعداد كبيرة من أعضاء الحزب الشيوعى •

كان من المفروض في ٧ نوفمبر — ذكرى ثورة نوفمبر — أن يقام احتفال مركزى مشترك من الحزب الشيوعى والحزب الديمقراطى الاشتراكى ، غير أن اللجنة المركزية للحزب الديمقراطى الاشتراكى رفضت اقامة حفل مشترك ، وأجلت احتفالها بهذه المناسبة الى ١١ نوفمبر • أرسلوا إلينا بعض تذاكر دعوة ، غدعانى « فيلهيلم بيك » :

— « سنذهب سويا الى احتفال الحزب الديمقراطى الاشتراكى ، فسوف يتحدث « جروتيفول » •

حيانا قياديو الحزب الديمقراطى الاشتراكى بحرارة ، ثم قادونا — أنا و « فيلهيلم بيك » — الى « لوج » كان محجوزا للضيوف •

بدأ « جروتيفول » يتحدث ، فلاحظت بعد دقائق قليلة أن هذه الخطبة لا تلتزم « الخط » اطلاقا ، اذ بدلا من أن يتحدث عن « التنظيم الديمقراطى المناهض للفاشية » الذى رسمنا خطوط الدعاية له ، تحدث كثيرا وبالتفصيل عن الاشتراكية ، تلك الطريقة التى كنا نتجنبها آنذاك ، بل نكافحها ، لأنها — طبقا لمفهومنا — لا تتفق مع مرحلة التطور الحالية ، ولأنها يمكن أن تضر وحدة كل القوى الديمقراطية المناهضة للفاشية وتسبب الى مفهوم الاشتراكية • وكانت مطالب « جروتيفول » الاقتصادية أكثر اثارة للارتياح عندنا : فهو وان لم يتحدث مباشرة ضد آلات المصانع ، والتعويضات ، الا أنه عالج هذه المسائل بطريقة مكنت

كل الحاضرين من أن يفهموا بوضوح لمغزى الحقيقى لكلماته • فبان التغير على وجه « فيلهيلم بيك » •

وأخيرا وصف « جروتيفول » التزامات الحزب الديمقراطى الاشتراكى فى السياسة الداخلية ، بأنها موقف وسط بين الحزب الوطنى والحزب الشيوعى ، وفى السياسة الخارجية يلعب الحزب دور الوسيط بين الاتحاد السوفييتى والديمقراطية الوطنية الغربية • ولم يذكر « جروتيفول » فى خطبته شيئا عن ضرورة تقوية العمل المشترك مع الحزب الشيوعى الألمانى أو عن التطور نحو وحدة كلا الحزبين •

وعندما انتهى « جروتيفول » من خطابه ، صفقنا مع المصفيقين بضعة ضربات بالكف تأدبا • ثم قال لى « فيلهيلم بيك » بصوت منخفض : « هيا بنا » • كان متأثرا جدا •

كنت قد توقعت أن زعماء الحزب الديمقراطى الاشتراكى سيدعوننا بعد الانتهاء من الاحتفال للجلوس معهم بعضا من الوقت ، ولكن ذلك أصبح غير ممكن بعد هذه الخطبة •

وبعد دقائق قليلة كنا فى العربة متوجهين الى « بانكوف » ولم يزل « فيلهيلم بيك » صامتا ، ثم قطع الصمت قائلا :

— « لم أتوقع هذا ! كيف يكون الوضع مع « جروتيفول » بعد الآن ؟ »

— « لقد تحدث « جروتيفول » اليوم بوضوح وعلى رؤوس الأشهاد ضد الوحدة » •

وفى اليوم التالى كانت خطبة « جروتيفول » موضوع الحديث الرئيسى عندنا فى اللجنة المركزية ، وأشيع أن هذه الخطبة ليست من تأليفه بل كتبها له « كلينجينهوفر » •

لم تنشر خطبة « جروتيفول » فى أى جريدة من جرائد المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، ولم تنشر أيضا فى مجموعة خطبه التى نشرت فى عام ١٩٤٨ م ، ولا فى مؤلفاته التى جمعت ونشرت فيما بعد فى مجلدات عدة •

أعلن فى نهاية نوفمبر ١٩٤٥ نتيجة الانتخابات البرلمانية الأولى بعد الحرب فى النمسا ، فكانت فاجعة للحزب الشيوعى النمساوى : اذ فاز الحزب الوطنى بـ ٨٥ مقعدا ، والحزب الديمقراطى الاشتراكى بـ ٧٦ مقعدا ، والحزب الشيوعى بـ ٤ مقاعد فقط •

وصل الينا تقرير من النمسا قبل اعلان النتيجة ، يفيد بأن الرفقاء النمساويون يتوقعون أنهم سيحصلون على عدد من الأصوات يساوى ما سيحصل عليه الديمقراطيون الاشتراكيون . كانت الانتخابات النمساوية ونتائجها موضوع الحديث الرئيسى عندنا فى اللجنة المركزية :

« لقد ارتكب الرفقاء النمساويون خطأين كبيرين ، ويجب أن نتعلم منهما ، وكان أهمهما مساعدة الديمقراطيين الاشتراكيين » . بدأت حملة الدعاية للوحدة من هذا اليوم ، ولم يوجد سوى موضوع واحد : الوحدة . فقد وضعت مسألة الوحدة على رأس القائمة فى كل الاجتماعات والمحاورات ، وكان هذا ضروريا ، لأنه ظهرت فى الأسابيع الأولى مخاوف لدى عدد كبير من أعضاء الحزب الشيوعى من الوحدة مع الديمقراطيين الاشتراكيين ، وتكوين حزب موحد .

وكان من واجبنا فى قسم الثقافة تحويل أعضاءنا تحويلا نهائيا الى « الخط » . وفوجئ كثير من أعضاء الحزب بتوزيع مئات الآلاف من نسخ برامج الحزب الديمقراطى الاشتراكى القديمة — برنامج « أيزيناخر » ١٨٦٩ م : وبرنامج « جوتر » ١٨٧٥ م ، وبرنامج « ارفورتر » ١٨٩٠ م — على الأعضاء ، ووجدنا أنفسنا فى قسم الثقافة والتعليم فجأة مشغولين بمشكلة غريبة ، ألا وهى جمع نصوص من مؤلفات : « أوجست بيبييل » و « فيلهيلم ليبكيششت » ، وأحيانا اذا أمكن من مؤلفات « كاوتسكى » و « هيلفردينج » لتستخدم فى حملة الدعاية للوحدة . ثم تلقينا بعد ذلك اشارة بامتيازات أكبر للحزب الديمقراطى الاشتراكى ، فبينما كنا ننسب حتى الآن هزيمة الحركة العمالية فى الجمهورية الفايمرية الى الحزب الديمقراطى الاشتراكى ، ولكننا كنا نعترف ببعض الأخطاء « التكتيكية » للحزب الشيوعى (فى الاستفتاء الشعبى فى عام ١٩٣١ م فى تقدير المسائل الوطنية ، وفى تشكيل الموقف فى مواجهة الحزب الديمقراطى الاشتراكى) ، أصبحت الأخطاء الهامة الآن تنسب الى كلا الحزبين .

فقد كانت الهزيمة ممكنة — هذا هو التفسير الحالى — لأنه لم توجد حركة عمالية موحدة (١) .

(١) غير أن هذا التفسير سحب فى عام ١٩٤٨ م .

تعود أعضاء الحزب الشيوعي على الوضع الجديد نسبيا ، فلم
توجد صعوبات لدى الشبان في هذا التحويل ، لأن أفكارهم نبتت في
الوحدة .

انعقد اجتماع مشترك بين زعماء الحزبين في ٢٠ — ٢١ ديسمبر
سنة ١٩٤٥ ، وأطلق عليه « مؤتمر الستين » وتوصل المجتمعون الى قرار
رسمى .. جاء فيه :

« سيكون الحزب الموحد حزبا اشتراكيا ألمانيا مستقلا ، ويمثل
مصالح العاملين في المدينة والقرية ، تبعاً للظروف المتاحة في ألمانيا » .
« ويتكون الحزب الموحد على أسس ديمقراطية ، ومن حق الأعضاء
الحرية في ابداء الرأي ، وحرية انتخاب كل الممثلين .. » .
« ويريد الحزب الموحد جمهورية ديمقراطية برلمانية ، وهدفه
تحقيق الاشتراكية في ديمقراطية اشتراكية ، وسيهيء التفاهم الأخوي
والعمل المشترك طريق الوحدة فكريا » .

وافق الديمقراطيون الاشتراكيون آنذاك فقط تحت شرط أن مسألة
الوحدة ستقرر في مؤتمر عام لأعضاء الحزب الديمقراطي الاشتراكي
في الامبراطورية .

بعث تكوين حزب اشتراكي ألماني مستقل ، والتأكيد على حرية
التعبير لكل أعضاء الحزب أملاً جديداً عند أعضاء وقيادى
الحزب الشيوعي الألماني المستقلين في تفكيرهم ، فتردد آنذاك :
« ستكون بعض النواحي في الحزب الجديد مغايرة تماماً لما هي عليه
حتى الآن في الحزب الشيوعي الألماني » . وبعد أسبوعين — في يناير
سنة ١٩٤٦ م — بلغ « فيلهيلم بيك » السبعين من عمره ، فزين قصر
الأدميرال (Admirals - Palast) — الذي كان يحتاج الى ترميم
عاجل — في شارع « فريدريش » وضع على المنصة أربعة أو خمسة
صفوف من الكراسي ، وحضر كل الذين لعبوا دوراً في الحياة السياسية
آنذاك . قابلت في طريقى الى الصالة « ايللى فينسر » بنت « فيلهيلم
بيك » فهمست في أذنى :

« سيصبح « فيلهيلم » ، اليوم المواطن الأول لمدينة برلين » .
قدمت التهانى المختلفة واحدة بعد الأخرى ، فكان اذا تحدث الرفقاء
الكبار ، الذين عرفوا « فيلهيلم بيك » من عصر النضال يبدو عليه
الانتعاش ، وما عدا ذلك ، فقد لاحظت أن كل شيء لم يحز رضاء كبيراً

لديه • تحدث عمدة برلين الدكتور « فيرنر » ، فعبّر عن تهنئته بكلمات عامة ، ثم قدم إليه شهادة المواطن الأول • ثم أعلن مقدم الخطباء اسم « أوتو جروتيفول » بوصفه مهنئاً باسم اللجنة المركزية لحزب الديمقراطى الاشتراكى • لم يكن قد مضى شهرين على خطبته التى ألقاها فى ١١ نوفمبر ولكن تغير الكثير منذ ذلك التاريخ ! ختم « جروتيفول » تهنئته بهذه الكلمات :

« .. اذا لم يكن لدينا أيضا شهادة مواطن أول نقدمها ، فان لدينا فى هذا المقام تصافيا ، نقدمه نابعا من القلب اليك يا عزيزى « فيلهيلم بيك » ، • نقدم يدا ، لا ينحصر مغزاها فى هذا اليوم فحسب ، بل يدا تستمر ممدودة مدة طويلة ، بحيث لا تتفصل الأيدي بعد اليوم • • » . التقت بعض الصور لتتشر فى كل الجرائد والمجلات ، ثم أقيم حفل فى قصر « هوهينشونهاوزين » على شرف « فيلهيلم بيك » • استمر القاء خطب التهنئة فيه ساعتين ، ثم انتهى الجزء الرسمى ، وبدأت الفرقة تعزف ألحان الرقص ، فتحول هذا المجتمع المتمت الى التعلق فى مجموعات • ولم تتح تلك الفرصة النادرة ، التحدث مع كل زعماء الحزب الشيوعى فقط ، بل أيضا مع كبار الموظفين السوفييت ، وكان عدد كبير منهم حاضرا فى هذا الحفل • فانتبه هذه الفرصة كثير من السياسيين ، وخاصة من أعضاء حزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى ، والحزب الديمقراطى الليبرالى فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى •

قيل لى :

« من فضلك • اذهب الى المسئول السياسى فى حكمدارية برلين • لأنه يتحدث مع زعيم الحزب الديمقراطى الليبرالى « كولتس » ويريد مترجما » ! كنا نجلس على مائدة جانبية ، بدأت فى أول الحديث أترجم كلمة كلمة ، ثم تيقظ عندى جانب الاهتمام بالسياسة • بدا لى أن حكمدار برلين لم يكن مؤدبا بصورة كافية مع زعيم الحزب الديمقراطى الليبرالى ، وكان يعبر أحيانا أيضا تعبيرات سياسية غير مناسبة ، فبدأت أصنع جملة صياغة أكثر تأدبا ، ثم أضفت إليها فيما بعد بعض الجمل الفرعية ، تعبيرا عن أفكار من عندى • وتوقعت أن « كولتس » سيسر بهذه التعبيرات الجميلة ، وطريقة الاجابة السريعة من الموظف السوفييتى الكبير ، ولكن نظرته كانت تزداد صرامة وعنفًا •

وعندما وقف الحكمدار ليطالب مسرويات ، همس « كولتس » في أذنى : « أشكرك على محاولتك صياغة كلام الحكمدار بأسلوب مؤدب ، وكذلك التأكيد على جبهة الوحدة ، ولكنى احب أن أشير لك الى أننى أفهم شيئاً من اللغة الروسية ، ومن الأفضل عندى فى هذه الحالة أن أسمع رأى الحكمدار حرفياً » .

كلفتم بمهمة خاصة بعد يوم عيد ميلاد « فيلهيلم بيك » بوقت قصير :

— « يجب أن تصدر كراسة ثقافية خاصة عن مؤتمر وفود النقابات المقرر عقده فى فبراير سنة ١٩٤٦ م » .

اندهشت . ، لأننى لم أكن أتوقع حتى هذه اللحظة الأمر بإصدار كراسة عن مؤتمر « رابطة النقابات العمالية الألمانية الحرة » ولم أفهم فى بادىء الأمر ، لماذا يهتم بهذه الأشياء فجأة !

ازدادت دهشتى بعد أيام قليلة ، حتى نحن العاملين فى اللجنة المركزية ، نزلت إلينا التعليمات ، أين : ومتى يجب أن نسهم فى انتخابات النقابة ، وقيل لنا :

« هذه الانتخابات أهم وأصعب معركة انتخابية حتى الآن ، فكل صوت له وزنه » .

حول بعضنا بسرعة — وأنا من بينهم — أسماءهم الى كشف نقابات أخرى لنستطيع الادلاء بأصواتنا هناك .

اهتم الكل بأعصاب مشدودة بانتخابات النقابات ! دعانى « فالديمار شميت » لحضور اجتماع قادة الحزب الشيوعى فى برلين :

« تعال معنا اليوم وغدا ! فنحن ننظم سياسة العمل الآن » . وفى حجرة صغيرة جلس القياديون الكبار فى أنظمة برلين ، ومعهم بعض المتخصصين فى شؤون النقابات فى اللجنة المركزية ، وجلس « أولبريخت » فى وسط الحجرة .

وأقيم فى حجرة جانبية خدمات تليفونية وعين فى كل حى بعض القياديين ليكونوا على أهبة الاستعداد للاتصال بقيادة الأحياء فى برلين وصدرت إليهم التعليمات بأن يبلغوا بسرعة عن كل ما يحدث فى الحى . فتوالت التقارير دون انقطاع عن التيارات والوضع فى المصانع والمؤسسات العمالية . كان « أولبريخت » مشحوناً بطاقة ، فدار العمل كما لو كانت معركة حربية .

— « بلغ حالا — الى الكل .. انتخب الشيوعيين فقط ! فقط للشيوعيين ، فالآن سيحسم كل شيء ! »

وبعد دقائق قليلة خرج أحد القياديين من الحجرة الجانبية :
« لا يريد الرفقاء تنفيذ هذا الأمر ، فهم يقولون ، انهم اتفقوا مع الديمقراطيين الاشتراكيين على تكوين قيادات النقابات بنسب متساوية • ولهذا يريدون اعطاء أصواتهم أيضا للديمقراطيين الاشتراكيين »
— « لا يمكن هذا الآن اطلاقا ، يجب انتخاب الشيوعيين فقط »
بلغ الرفيق هذه التعليمات ، ثم عاد مرة أخرى بعد ربع ساعة :
« الرفقاء غير راضين ، فهم يقولون : اذا لم نحافظ على اتفاقنا مع الديمقراطيين الاشتراكيين ، فسنحطم الوحدة » •
فأجابه « أولبريخت » :

« ستكون الوحدة أكثر صلابة ، على قدر كثرة الشيوعيين في قيادة رابطة نقابات العمال الحرة » •

كانت تعليمات الحزب أقوى من رغبة وشعور العمال ، الذين كانوا على استعداد للعمل المشترك الشريف في كل أنحاء برلين ، فحصل الحزب الشيوعي على الأغلبية في انتخابات « رابطة نقابات العمال الحرة » • فسر « أولبريخت » من ذلك ، ولكن العمال في أحياء برلين كانوا غاضبين •

« لن يغفر لنا الديمقراطيون الاشتراكيون هذا أبدا ، فلم يغب عنهم أننا أعطينا أصواتنا للشيوعيين فقط ، وقد أفسدنا بهذا الانتخاب شمار شعور عديدة من العمل المشترك » •

ولكن عندما « تكونت » قيادة النقابات في برلين قدم الى الديمقراطيين الاشتراكيين باسم الحزب الشيوعي فرصة المشاركة المتساوية بسخاء •

قال لي قيادي في أحد الأحياء :

« مادام قد رسم ذلك ، فكان لزاما علينا أن نلتزم باتفاقنا مع الديمقراطيين الاشتراكيين ، وكنا قد توصلنا الى نفس النتيجة ، دون أن تهدم الثقة بين أعضاء الحزبين في المصانع » •

لم يفكر « أولبريخت » في هذا ، وناور في كل شيء ليتظاهر بقوة الحزب الشيوعي في النقابات ثم بعرض المساواة ، كي يكسب القياديين الكبار في الحزب الديمقراطي الاشتراكي •

(٣٢ — نظام الحكم الشيوعي)

وبعد ذلك بأيام قليلة — في ٩ فبراير سنة ١٩٤٦ — حضرت مؤتمرا كبيرا لوفود النقابات العمالية من جميع أنحاء المنطقة الألمانية ، الواقعة تحت الاحتلال السوفييتي ، غير أن المسائل النقابية لم تبحث في هذا المؤتمر ، بل كان الهدف هو الوحدة ، فتقررت مسألة الوحدة في هذا المؤتمر ، وأكثر من هذا ، فقد نجحت أغلبية اللجنة المركزية للحزب الديمقراطي الاشتراكي في ١١ فبراير في اتخاذ قرار يقضى باستفتاء أعضاء الحزب في وحدة كلا الحزبين . وتقرر عقد مؤتمر حزبي في المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتي ، وبهذا تنازلوا عن فكرة عقد مؤتمر حزبي لجميع أنحاء ألمانيا .

قال لي « فالديمار » في اليوم التالي مفتخرا :

« كل شيء واضح الآن يا « فولف جانج » ، فستتم الوحدة في ٢٢ أبريل مساء » .

فقلت له : « هكذا وصلتك الأنباء بهذه الدقة » .

— « نعم .. كان عندنا منذ لحظات اجتماع مع الأصدقاء السوفييت ، وحددنا فيه كل شيء فقد أتاح « مؤتمر رابطة النقابات العمالية الحرة » الفرصة لنا لتحديد ذلك » .

— « والديمقراطيون الاشتراكيون » ؟

— « سوف تتغلب على هذه المسألة » .

شعرت بعدم الارتياح : اذ لم أرد الوحدة بهذا الأسلوب — هل كان صوابا حقا ، أن يتقرر في اجتماع صغير في منتصف فبراير تحديد اليوم والساعة — قبل شهرين من حلولها — التي ينبغي أن يتحد فيها مئات الآلاف من الشيوعيين والديمقراطيين الاشتراكيين من جميع أنحاء المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتي في حزب واحد ؟

ثم وضعت المبررات : أحيا الحزب الموحد من الشيوعيين والديمقراطيين الاشتراكيين أملا كبيرا في أن سوف يتغلب على ما كان مخيبا لآمالى حتى الآن في الاتحاد السوفييتي ، وفي المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتي هل تكون كل النظريات المستخدمة في مثل هذا القرار التاريخي صحيحة مائة في المائة حقيقة ؟

ألم يوافق رأى « آكارمان » في انتهاج طريق ألماني مستقل الى الاشتراكية ؟ ألم يكن كل هذا — هكذا قلت لنفسى — أهم من خطوات « تكتيكية » مشبوهة ؟

الطريق الى الوحدة

عقد في ٢٦ فبراير سنة ١٩٤٦ مؤتمر مشترك لقيادة الحزبين الديمقراطي الاشتراكي والشيوعي في المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتي • وتقرر في هذا المؤتمر ، الذي اشترك فيه ثلاثون عضوا من قيادة الحزبين ، الدعوة الى مؤتمر الوحدة بين الحزبين في ٢١ ، ٢٢ ابريل • وأعلنت في نفس الوقت مسودة المبادئ الأساسية وأهداف — وكذلك صيغة — الاتحاد الاشتراكي الألماني •

وبهذا بدأت — كما عبرت الصيغة الرسمية — « المرحلة الثالثة » للوحدة • « فالمرحلة الأولى » — وهي فترة العمل المشترك — استمرت من يونيو سنة ١٩٤٥ حتى مؤتمر ديسمبر سنة ١٩٤٥ • وحددت « المرحلة الثانية » بالفترة من ٢١ ديسمبر سنة ١٩٤٥ م حتى ٢٦ فبراير سنة ١٩٤٦ م • كل ما شاهده حتى الآن من حملات الدعاية للوحدة ، لم يكن شيئا بجانب ما بدأ الآن •

تركز عملنا في الوحدة فقط فاشتدت الدعاية السياسية بين الجماهير ، وكان يشرف عليها آنذاك « رودولف دوللينج » الذي أصبح فيما بعد رئيسا للقسم السياسي في الشرطة • فتوالى طبع المنشورات والاعلانات دون انقطاع ، ولم يعالج في كراستي الثقافية سوى موضوع واحد : الوحدة •

لم تمر ندوة ولا اجتماع ولا مؤتمر ، أيا كان الموضوع الذي من أجله عقدت هذه اللقاءات دون أن يطالب المجتمعون بالوحدة فورا بين الحزب الشيوعي والحزب الديمقراطي الاشتراكي ، فتواترت القرارات والتوصيات بكميات كبيرة على اللجنة المركزية ، وهيئة تحرير « جريدة الشعب الألمانية » •

وفي وسط زحام هذه الحملة الدعائية للوحدة ، استدعى « فريد أولسنر » كل العاملين في القسم السياسي والدعاية • فرأينا على المنضدة نسخا من مشروع رسم كبير ملون لعلم وشعار الاتحاد الاشتراكي الألماني المقبل •

« هاهي ذي الاقتراحات الأولى لشعارنا الجديد ، لقد كلفنا عددا كبيرا من الرسامين برسم شعار للاتحاد الاشتراكي الألماني ، بحيث يحتوى على رمز الأيدي المتشابكة » •

كان ألمانا ثمانية أو عشرة رسومات تقريبا ، مرسوما عليها الأيدي المتشابكة بشكل دائري ، والكلمات : الاتحاد الاشتراكي الألماني • قال أحد القياديين من قسمنا — وكان في معسكرات الاعتقال في ألمانيا أثناء عهد هتلر — :

— « لا يعجبني الشكل الدائري ، اذ من الممكن أن يذكر بالرسم النازي » • فأيده الآخرون بسرعة ، ثم دارت مناقشة طويلة حول أي شكل نختار ، وأخيرا اتفقنا على الشكل البيضاوي • فبلغ الرسامون بالتعليمات الجديدة ، وبعد أيام قليلة اجتمعنا مرة أخرى ، لنشاهد عددا من رسومات الرسامين •

كان أحسن رسم حاز قبولنا عبارة عن خلفية بيضاء رسمت فيها الأيدي المتشابكة ولكن لم نستطع أيضا الاتفاق عليه ، فاقترح « أوتو جروتيفول » — وهو رسام هاو — أن يرسم علم أحمر على الخلفية البيضاء ، فوافق الجميع على اقتراحه ، فأعيدت الرسومات مرة أخرى الى الرسامين مع الاقتراح الجديد ، ثم توصلنا في الاجتماع التالي الى قرار حول الرسم :

ينبغي أن يرسم علم أحمر على الأرضية البيضاء ، وأمامه أيدي متشابكة باللون الذهبي وحول الاطر ، على الأرضية المشعة باللون الأزرق ، يكتب باللون الذهبي كلمات : الاتحاد الاشتراكي الألماني • والآن •• أصبح عندنا نظام أساسي ، وشعار دعائي قصير ، ورسم ، ولم يبق سوى شيء واحد : الحزب الموحد •

تركزت كل الجهود الآن على تأسيس الاتحاد الاشتراكي الألماني في كل أنحاء المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتي وفي برلين في الوقت المحدد •

ازدادت في هذه الأثناء المعارضة في الحزب الديمقراطي الاشتراكي ضد الاندماج الفوري للمنظمات ونما الشك في حسن نية الحزب النشيوعي الألماني •

وبينما لم يكن من المعكن ظهور هذه المعارضة علنا في المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتي ، توصل المعارضون في برلين الى قرار باجراء استفتاء عام لكل أعضاء الحزب الديمقراطي الاشتراكي في مسألة الوحدة ، وتقرر أن يجري هذا الاستفتاء في ٣١ مارس سنة ١٩٤٦ م •

رفضت اللجنة المركزية للحزب الديمقراطي الاشتراكي — وكانت آنذاك برئاسة « جروتيفول » قد أقرت الوحدة — الاستفتاء • كما منع الحكماداريون السوفييت اجراءه في المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتي •

انتقد بعض قياديي الحزب الشيوعي المعروفون هذا الاجراء ، وسمعت من أحد الرفقاء قوله :

« من الطبيعي أن يوجد في الحزب الديمقراطي الاشتراكي ارتياب كبير في الوحدة ، ولكن الشك سيزداد حدة ضد الوحدة ، بسبب منع اجراء مثل هذا الاستفتاء ، اتركوا الرفقاء الديمقراطيين الاشتراكيين يفصلوا في هذه الأشياء » • فوافقته على هذا الرأي •

منع اجراء الاستفتاء في المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتي ، وبرلين الشرقية ، ولم يجر الا في المناطق الغربية من برلين التي تسيطر عليها قوات الحلفاء الغربيين ، فأدلى ٣٢ر٥٤٧ عضوا ديمقراطيا اشتراكيا من سكان برلين الغربية بأصواتهم • وكانت النتيجة كما يلي :

- ١ — ٢ر٩٣٧ صوتا أيدوا الوحدة الفورية مع الحزب الشيوعي •
- ٢ — ١٤ر٧٦٣ صوتا أيدوا تحالف الحزب الديمقراطي الاشتراكي مع الحزب الشيوعي في العمل المشترك والنضال الأخوي •
- ٣ — ٥٥٩ر٥ صوتا عارضوا كل وحدة وكل تحالف في العمل مع الحزب الشيوعي — كان من المسلم به أن الغالبية العظمى من الديمقراطيين الاشتراكيين في برلين ترفض الاندماج الكلي الفوري مع الحزب الشيوعي •

وبعد أن عرفت هذه النتيجة في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي ، تلقينا تعليمات بأن نضاعف حملة الدعاية للوحدة ، فعقدت الاجتماعات والمؤتمرات ، وساد في كثير منها حماس صادق وأمل في أن يتغلب أخيرا على هذا الانقسام البغيض ، وفي أن تتوحد التقاليد العريقة في كلا الحزبين في الحزب الجديد •

استخدم الضغط على كثير من الديمقراطيين الاشتراكيين الذين كانوا يعارضون الوحدة — ولكن حتى نحن العاملين في قسم الشؤون السياسية والدعاية في اللجنة المركزية ، تركنا في غفلة عن أحداث وقعت في تلك الأيام ، فلم أعرف عن عملية القبض على معارضي الوحدة في

صفوف الديمقراطيين الاشتراكيين الا في حالة واحدة في حي « برينسلاوبرج » أغضبت بعض القياديين في الحزب الشيوعي في برلين غضبا شديدا .

« لا يضر هؤلاء الروسيون بعمليات القبض التي يقومون بها أحد الا الشيوعيين ، فاذا لم يرد بعض القياديين الآن ، فدعوهم وشأنهم ، فسوف يقتنعون بصواب الوحدة فيما بعد » .
لم تزل الخيالات تسيطر علينا آنذاك ..

اذ نشرت قصة من أحد مراكز « ميكلينبرج » بين كل القياديين في تلك الأيام ، وقصها « فالديمار شميت » لى : « دعا حكمدار المركز سكرتيرى الحزب الشيوعي والحزب الديمقراطى الاشتراكى فجأة في يوم الثلاثاء من الأسبوع الماضى لتناول العشاء عنده في الساعة السابعة مساء ، فوصلا في وقت واحد ، فحيهما الحكمدار بحرارة ، وتقمص شخصية رسمية على مستوى عال وقدهما الى صالة الطعام ، وكانت المائدة معدة اعدادا كما في الاستقبالات الدبلوماسية . وكان عليها كل ما لذ وطاب ، وكان الحكمدار يحبيهما بين الحين والآخر ويحثهما على المزيد من الأكل : « تفضلا .. كلا .. » فأكل سكرتيرى الحزبين في المركز . ثم دعاهما الى الشراب : « تفضلا .. شربا .. » وصب لكل واحد منهما كأسا من « الفودكا » ، فتردد الرجلان ، ولكن الحكمدار أصر على ذلك وقال لهما : « لا بد أن تشربا » .

فشرب الرجلان بتضرر كأسيهما من الفودكا .
« والآن تصافحا ! »

ففنذ الرجلان الأمر وتصافحا .

فصاح الحكمدار مسرورا :

« جميل جدا .. أستطيع الآن أن أبعث بتقرير بأن الوحدة قد تمت في مركزنا » .

عقدت مؤتمرات مشتركة في ٢٦ مارس سنة ١٩٤٦ في المراكز ، وفيما بعد في كل مقاطعات المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، واندمجت المدارس المسائية : وصدرت جريدة مشتركة في « زاكسين » وفي « تورينجن » وفيما بعد في المقاطعات الأخرى ، وأعلنت « زاكسين » و « ميكلينبرج » في مؤتمرهما الحزبى الذى عقد في ٨ ، ٩ ابريل أن الوحدة قد تمت عندهما . وفي ١٣ ، ١٤ ابريل عقد الحزب الشيوعي

والأعضاء المؤيدون للوحدة من الديمقراطيين الاشتراكيين مؤتمرهما الحزبي في برلين • وحضرت هذا المؤتمر حيث ألقى فيه « فالديمار شميت » رئيس الحزب في برلين آنذاك المحاضرة الرئيسية • وعقب عليها « أولبريخت » • لقد كان الخطاب الأول الذي بين فيه بوضوح وعنف التباين والتعارض مع المنطقة الألمانية الغربية ، فبدأ بمقارنته بقوله :

« فعندهم في المناطق الغربية — وعندنا في الاتحاد السوفييتي •• ضحك الجميع بصوت عال — لم تكن عبادة » أولبريخت « قد وجدت آنذاك بعد — عندما سبق لسان « أولبريخت » فقال : « عندنا في الاتحاد السوفييتي ••• » وعندما أدرك ذلك خجل وقال : « أنا أقصد طبعاً : عندنا في المنطقة السوفييتية ••• » •

وبعد أيام قليلة بدأ مؤتمر حزبي مركزي لأعضاء الحزب الشيوعي الألماني وأعضاء الحزب الديمقراطي الاشتراكي لتقرير الوحدة • ولم أعلم الا فيما بعد ، كيف أظهر مؤتمر الحزب الديمقراطي الاشتراكي الاتجاه الحقيقي بين أعضاء هذا الحزب في المنطقة السوفييتية وفي برلين ، وأن الوفود التي لم تكن موافقة على الوحدة ، أنزلت عنوة من القطارات وهي في طريقها الى الاجتماع وألقى القبض عليها • وكنت قد اعتقدت آنذاك أن هذا المؤتمر يمثل الغالبية العظمى من أعضاء الحزب الديمقراطي الاشتراكي •

وفي صباح يوم ١٩ أبريل اتجهت مع الزملاء الآخرين العاملين في اللجنة المركزية الى المؤتمر الخامس عشر للحزب الشيوعي الألماني الذي عقد في المسرح الألماني في شارع « شومان » • كانت المنصة تلمع باللون الأحمر الفاتح ، وكتب وراءها على الحائط بالخط العريض : سلام — بناء — تقدم •

حيا « فيلهيلم بيك » الحاضرين باسم اللجنة المركزية ، ومن بينهم أيضا ممثلون عن سلطات الاحتلال المتحالفة ، ثم عبر عن الأمل في أن يلقى حزب الاتحاد الاشتراكي الألماني : الذي سيتكون — اعترافاً وتأييداً من الحلفاء • كانت الخطب لم تترك قصيرة آنذاك ، فتحدث « أولبريخت » عن سياسة الحزب ، و « فرانس داليم » عن المنظمات ، فأعلن أن أكثر من ٢٠٠.٠٠٠ عضواً جديداً طلبوا الانضمام الى الاتحاد الاشتراكي الألماني ، وأكد « داليم » بنوع خاص على الديمقراطية

داخل اطار حزب الاتحاد الاشتراكي الألماني المقبل : « ستتاح الحرية الكاملة في حزب الاتحاد الاشتراكي الألماني للأعضاء في التعبير عن آرائهم » • وتحدث « أنتون آكارمان » عن المسائل الأيديولوجية ، فعبر مرة أخرى عن نظرية اختلاف الطرق الى الاشتراكية في البلاد المختلفة : « • غير أن من الخطأ الفاحش ، — ذلك الخطأ الذي بدأنا ارتكابه في الماضي — استخراج مبادئ « لينين » و « ستالين » التي وضعت لحالات خاصة في بلدهما ، ومحاولة تطبيقها حرفيا في ظل ظروف مختلفة ، أو تقليدهما فيما فعلاه في أوضاع مختلفة تماما عن أوضاعنا • يجب أن نتجنب هذه الأخطاء اذا أردنا أن نتجنب ارتطام السفينة » • ولوحظ أنه كان رزينا عندما قال ضاغطا على مخارج الحروف : « • سيكون حزب الاتحاد الاشتراكي الألماني حزبا مستقلا ، لأنه سيكون حرا حرية كاملة في اتخاذ قراراته ، ولأنه لا ينظر الى المبادئ الأساسية في « الماركسية » على أنها دستور ، ولا على أنها مبادئ عقيدية جامدة ، بل سيستخدمها في ظل ظروف ألمانية خاصة ، وعلى الطريق الألماني الخاص في التطور » •

فقبل هذا التفسير بتصفيق حاد •

وفي اليوم التالي تحدث « فيلهيلم بيك » عن الحزب الموحد ، فلم يقتصد في نقده زعامة الحزب الشيوعي الألماني السابق حيث قال : « كنا نحن الشيوعيين نطمح دائما الى أن نطبق تجربة ثورة أكتوبر حرفيا في ألمانيا ، وبهذا تجاهلنا الخواص الوطنية الألمانية • وحركة العمال الألمانين » •

ثم جرت عملية انتخاب مجلس الادارة في نهاية المؤتمر ، فانتخب أربعون قياديا سينضمون بعد تأسيس الاتحاد الاشتراكي الألماني الى مجلس ادارته الذي سيضم ٨٠ عضوا ، وكان الأمل السائد أن فروع حزب الاتحاد الاشتراكي ستتأسس في جميع أنحاء ألمانيا بعد ذلك بوقت قصير ، فانتخب اثني عشر من الأربعين من سكان ألمانيا الغربية • وافق المؤتمر في النهاية على قرار بالاجماع ، جاء فيه :

عقد مؤتمر الحزب الشيوعي الألماني مع مؤتمر الحزب الديمقراطي الاشتراكي جلسات مشتركة في يومى ٢١ ، ١٢ ابريل سنة ١٩٤٦ في قصر « آدميرال » في برلين لاتمام وحدة الحزبين وتأسيس حزب الاتحاد الاشتراكي •••••

تأسيس الاتحاد الاشتراكي الألماني

بدأ مؤتمر الحزب الموحد في الساعة العاشرة من صباح يوم ٢١ أبريل سنة ١٩٤٦ في قصر « أدميرال » في برلين • فتدفق أكثر من ألف وفد ومئات الضيوف الى داخل المبنى — المؤتمر الحزبي المشترك الأول للشيوعيين والديمقراطيين الاشتراكيين •

تجمع أمام قصر « أدميرال » آلاف من الناس — لم يجمعوا بالقوة كما أصبح عادة فيما بعد ، بل جمعهم حب الاستطلاع وميلهم الطبيعي لاطهار التأييد — يلوحون لنا بأيديهم ، ويصيحون بكلمات التشجيع • وأخيرا وجدنا مكانا •• جلس الشيوعيون والديمقراطيون الاشتراكيون في الصفوف مختلطين مع بعضهم ، وتبادل التحية منهم مع من يعرفه من الحزب الآخر ، وعرف بعضهم نفسه لمن لا يعرفه كلما سمح الموقف بذلك • ثم عزفت الفرقة افتتاحية « فيدليو » لـ « لودفيج فان بيتهوفن » ، وبعد دقائق قليلة دخل « فيلهيلم بيك » و « أوتوجروتيفول » الى المنصة من جانبيين متقابلين ، فتقابل في الوسط ، وتصافحا بين التصفيق الحاد من الحاضرين ، استمر دقائق ، ثم قال « جروتيفول » : « عندما خطونا نحن الاثنين منذ لحظات على هذه المنصة : وضع عندى المغزى الرمزي لهذا العمل ، فقد جاء « فيلهيلم بيك » من اليسار وجئت من اليمين ، ولكن جاء كلانا لتتقابل في الوسط » •

اندلع التصفيق الحاد ، وارتفعت صيحات الاستحسان ••

وهذا ما حدث أيضا مرارا فيما بعد ، ففي ضحى يوم ٢١ أبريل سنة ١٩٤٦ م سيطر الحماس الصادق الحر — غير المنظم من قبل الجهات العليا — على مشاعر الوفود •

انقضى اليوم الأول من المؤتمر في القاء كلمات الترحيب والتأييد ، واشترك فيها بنوع خاص كثير من الشيوعيين ، والمؤيدين للوحدة من الديمقراطيين الاشتراكيين من الأجزاء الغربية في ألمانيا •

وبدأ اليوم الثاني — وهو اليوم الحاسم في مؤتمر وحدة الحزبين — بمفاجأة •• فقد أعلن مقدم الحفلة :

« أحب أن أقدم لكم الرفيق « أمبورن » من « ليبزج » ليقدم هدية ، ويلقى كلمة توضيح قصيرة لها » •

فوقف واحد من الصفوف الخلفية ، واتجه الى المنصة بخطوات بطيئة ، وكان يمسك في يده عصا كبيرة ، منظرها مخيف • وأخيرا وصل الى المنصة وعيون الوفود تلاحقه •

ثم أعطى العصا الكبيرة لـ « جروتيفول » الذى مد بدوره طرفها الآخر لـ « فيلهيلم بيك » بحيث أمسك بها ، كل من طرف • ثم شرح « أمبورن » حكاية العصا :

« هذه ذكرى من « أوجست بييل » خرطها بيده ، وترأس بها

مؤتمر الحزب فى عام ١٨٩٠ م •

كانت المعارضة موجودة آنذاك ، التى كانت تسمى « الشباب » ، قال الذين حضروا المؤتمر ان « أوجست بييل » ضرب الشباب بهذه العصا عندما اشتد النزاع •

فضجت القاعة بالضحك ، ثم واصل « أمبورن » كلامه : « وبعد انتهاء المؤتمر أعطى « أوجست بييل » العصا لـ « باول رايسهاوس » ليحتفظ بها • وكان « رايسهاوس » من المؤيدين للوحدة ، فأراد أن يضع هذه العصا تحت تصرف مؤتمر الحزب ، اذا تحققت الوحدة ، ثم قال « أمبورن » : « ولما كنت وصي على ميراث « رايسهاوس » رأيت لزاما على أن أسلم هذه العصا لمؤتمر الحزب ، وبالتالي لمجلس الادارة الجديد للحزب الموحد » •

وعلى الرغم من أن هذه التمثيلية كانت معدة من قبل ، فقد ظهر التأثير والانفعال على وجه « فيلهيلم بيك » • هل تذكر شبابه فى الحركة العمالية الألمانية ؟ ألا يزال يشعر فى هذه اللحظة بالارتباط القلبي بها ؟ — رغم كل التغيير الفكرى ، والنظام الحزبى والنفى فى الاتحاد السوفييتى ؟

عرفت « فيلهيلم بيك » معرفة جيدة ، تمكننى من التفرقة بين الشعور الأسمى عنده وما يتظاهر به من انفعالات •

ثم قدمه « جروتيفول » لالقاء كلمته ، فعدد « فيلهيلم بيك » مرة أخرى كل الأسس التى تدعو الى الوحدة ، وذكر كل المؤتمرات والقرارات التى طالبت بالوحدة • وانحرف عن التفسير الموضوعى مرة واحدة فقط ، وذلك عندما تحدث عن مؤتمر معارضى الوحدة فى الحزب الديمقراطى الاشتراكى ، الذى عقد فى « تسيلندورف » وعن الاستفتاء ، فوصف المؤتمر فى « تسيلندورف » — متجاهلا تماما قوة الديمقراطية الاشتراكية

— بأنه « مهزلة » وأطلق على الحزب الديمقراطي الاشتراكي في برلين الذى أسس هناك : « نادى مستشفى تسيلندورف » • ولم يفكر أحد من الموجودين في القاعة أن « نادى مستشفى تسيلندورف » سيثبت بعد ستة أشهر ، أنه أقوى حزب في برلين •

كانت خطبة « فيلهيلم بيك » — بصرف النظر عن تهكمه بهذه المجموعة — تذكيرا بالعمل المشترك المنسجم ، الذى سيقوم به الشيوعيون والديمقراطيون الاشتراكيون ، في الاتحاد الاشتراكي الألماني ويجب أن يكون الهدف هو الاندماج التام « حتى تذوب الفوارق فلا يكون هناك ديمقراطي اشتراكي وشيوعي » •

وناشد كل الوفود وأعضاء الحزبين : « بأن يتسموا بروح الاخوة والصداقة والصبر » •

كذلك لم يتحدث « جروتيفول » آنذاك بتلك الرصانة التي أصبحت اليوم جزءا ثابتا في الاتحاد الاشتراكي الألماني ، بل صاغ كلمته صياغة رائعة دون اغراق في المسائل العقائدية ، فتحدث فيها عن حاضر ومستقبل ألمانيا ، وبين أن الاتحاد الاشتراكي الألماني يرفض مناهضة البلشفية ، « • • ولكن هذا الرفض بعيد كل البعد عن الارتباط الداخلى بنفوذ أجنبي » • وقوبل « جروتيفول » بتصفيق حاد لم يحدث في المؤتمر كله حين قال :

« أنا أعتقد أن رجال سلطة الاحتلال السوفييتي ، سيأخذون كلمتي على محمل سوء اذا قلت : ان الاتحاد الاشتراكي الذى يخلق اليوم ، يكفل بواسطة قوته السياسية — على الأقل في المنطقة السوفييتية — ضمنا كبيرا في المنطقة السوفييتية ، يجعلنا لا نحتاج الى البنادق الروسية » •

عبر التصفيق الهادر الذى استمر دقائق عديدة ، وصيحات الاستحسان عن الأمل في أن الاشتراكيين الألمانين سيصبحون قريبا أسيادا في وطنهم بعد تأسيس الاتحاد الاشتراكي الألماني في اتخاذ طريق مستقل الى الاشتراكية ، يركز على تقاليدهم الخاصة •

أكد « جروتيفول » بنوع خاص على ضرورة الحرية الشخصية في الحزب الجديد فقال :

« ان من واجبات الحزب تطوير الحرية الشخصية ، وتوسيع

دائرتها... يسود احترام حقوق حياة الانسان في الأحزاب الألمانية الصغيرة بصورة أقوى وأسمى مما هي في الحزب الاشتراكي » .
ثم جاءت نقطة الذروة : الاستفتاء على قرار تأسيس الاتحاد الاشتراكي الألماني وبرنامجه ، وهيكل تشكيله الأساسي .
تضمنت « مبادئ وأهداف الاتحاد الاشتراكي الألماني » — بجانب مطالب العصر التي صيغت في ١٢ نقطة — نصا قصيرا عن الهدف الاشتراكي الأخير : « هدف حزب الاتحاد الاشتراكي الألماني هو التحرر من كل استغلال واستعباد ، ومن الأزمة الاقتصادية ، والفقر والبطالة ، والتهديد بالحرب الاستعمارية . ولن يتحقق هذا الهدف — وهو حل مشاكل الحياة الوطنية والاجتماعية لشعبنا — الا عن طريق الاشتراكية... »

ويتيح الوضع الحالي في ألمانيا — بانهيار جهاز سلطة الدولة النرجعي ، وقيام دولة ديمقراطية على أساس اقتصادي جديد — امكانية منع القوى الرجعية من استخدام القوة والحرب الأهلية ، للوقوف في طريق التحرير النهائي للطبقة العمالية...
ان حزب الاتحاد الاشتراكي الألماني سييذل ما في وسعه للسير في الطريق الديمقراطي الى الاشتراكية ، ولكنه سيستخدم الوسيلة الثورية ، اذا تركت الطبقة الرأسمالية طريق الديمقراطية... » .
« من يوافق على هذه المبادئ والأهداف المقترحة للاتحاد الاشتراكي الألماني » ؟ فرفع كل الحاضرين أيديهم .
وبهذا ووفق على البرنامج بالاجماع ، ثم تلا ذلك التصويت على هيكل التشكيل الأساسي . تلفت حولى مندهشا : فقد رأيت بالقرب منى مباشرة بعض الوفود لم ترفع يدها .

ثم نودى على المعارضين ، فرفع أعضاء ٢١ وفدا أيديهم .
« الممتنعون عن التصويت » ؟ فرفع ٤ وفود أيديهم .
أعجبت بهذه النتيجة ، اذ لم أر حتى اليوم — لا في منظمة الشباب ولا في الحزب الشيوعي الألماني — صوتا معارضا في المسائل السياسية « اذن سيكون الاتحاد الاشتراكي الألماني شيئا آخر مغايرا لما رأيته حتى اليوم » هكذا فكرت مرتاح النفس ، ولم أكن أدري آنذاك : أنها كانت الأولى ، ولكنها في نفس الوقت المرة الأخيرة أيضا في تاريخ الاتحاد الاشتراكي الألماني في أن يصوت وفد في مؤتمر الحزب ضد

« اقتراح القيادة • ثم أخذ « أولبريخت » الجلسة فقرأ — بصوت عال ، وبلكنته « الزاكية » المعروفة — قرار الوحدة :

« قرر المؤتمر الأربعون للحزب الديمقراطي الاشتراكي الألماني والمؤتمر الخامس عشر للحزب الشيوعي الألماني في جلستهما المنعقدتين في ١٩ ، ٢٠ أبريل سنة ١٩٤٦ م ، وحدة كلا الحزبين بأغلبية الأصوات • يتكون من الحزب الديمقراطي الاشتراكي الألماني والحزب الشيوعي الألماني ، ابتداء من اليوم حزب الاتحاد الاشتراكي الألماني » •

منع التصفيق الحاد « أولبريخت » من الاستمرار في القراءة ، ثم بعد انتهاء التصفيق واصل قراءته :

« من يوافق على قرار الوحدة يتفضل مشكورا برفع يده » كانت الموافقة اجماعية في هذه المرة •

وأخيرا أعلن أن مجلس الحزب يتكون من ٨٠ عضوا يمثل كل حزب بأربعين ، وهم الذين اختيروا أمس في كل من مؤتمر الحزب الديمقراطي الاشتراكي والحزب الشيوعي •

لم يبق الا انتخاب الرئيس • ابتسم كثير من الوفود عندما لم يكف « أولبريخت » بالتصفيق ، وصيحات الاستحسان بعد أن أعلن اسمي « فيلهيلم بيك » و « جروتيفول » — وكانت هذه أول مرة ، وآخر مرة تحدث في مؤتمر للاتحاد الاشتراكي الألماني — بك طلب — بهدوء وموضوعية — من الجميع ابداء أصواتهم :

« أرجو من الرفقاء الموافقين رفع أيديهم » !

فارتعت الأيدي عالية ، كأشجار الغابات •

« المعارضون • • الممتنع عن التصويت » لا أحد •

« استقر انتخاب الرفيقيين « فيلهيلم بيك » و « جروتيفول » رئيسين للحزب بالاجماع » فاندلع التصفيق الحاد قاطعا ختام كلمة « أولبريخت » •

« ابتداء من اليوم ، لا يوجد ديمقراطيون اشتراكيون ولا شيوعيون • • بل يوجد اشتراكيون فقط • • لا تتعلق أحداث اليوم بتوحيد الديمقراطيين الاشتراكيين والشيوعيين فحسب ، بل أيضا بميلاد جديد للحركة العمالية الألمانية • • » •

ثم غنى الجميع بصوت واحد أغنية : « اخوة ، الى الشمس ، الى الحرية » . قام الاتحاد الاشتراكي الألماني .

اجتمع في المساء كل الوفود وكثير من القياديين في قصر مدينة « فريدريسن » لحضور « حفلة ختم سعيدة » .

لم يكن هناك مقعد واحد من مقاعد الصالة التي يبلغ عددها ثلاثة آلاف خاليا ، ووقف مئات أخرى من الرفقاء في المدخل . فقد انتهى اليوم المليء بالأحداث ، والكل مفعم بالآمال ، اذ بدا كل شيء ناطقا بتحقيق رغباتنا : تقسيم مناصب الرئاسة ، كلمات التذكير بالزمالة ، والثقة التي وجهها « بيك » الى الشيوعيين ، وتأكيده « جروتيفول » على الحرية الشخصية في الحزب الجديد ، والانتخاب الأول ، الذي حطم عادة : باجماع الأصوات ، ولم يعتبره أحد شرا ، أو ضررا تجب مكافحته ودعوى اتخاذ طريق ألماني مستقل الى الاشتراكية ، التي سجلت في برنامج الاتحاد الاشتراكي الألماني ، وإشارة « جروتيفول » الى احتمال نهاية الاحتلال السوفييتي

لم يخطر ببالي في ذلك المساء أن نصف الذين اشتركوا في مؤتمر الوحدة ، سيعدون من نشاطهم ، أو يعزلون ، أو يشي بهم ، أو يقعون ضحية تطهير بعد أعوام قليلة .

حتى الذين أسهموا بنشاط كبير في تأسيس الاتحاد الاشتراكي الألماني ، لم يستثنوا من الوقوع في هذا المصير .

فمن أعضاء السكرتارية المركزية الأربعة عشرة ، استقال « أوجست كارستين » لأسباب صحية ، وهرب « إيريش . ف جنيفكي » في أكتوبر سنة ١٩٤٨ الى ألمانيا الغربية ، ووصفه « أولبريخت » فيما بعد بأنه « عنصر طبقى معادى » — ونقل « أوتو ماير » و « كيتي كيرن » و « هلموت ليمان » في يناير سنة ١٩٤٩ م الى مناصب لا وزن لها ، واتهم « باول ميركير » في أغسطس سنة ١٩٥٠ م « بعدم الثقة في الزعامة السوفييتية ، وأنه نفذ أوامر الاستعماريين الأمريكيين في المنفى » وبناء على هذه التهمة جرد من جميع المناصب . ولم يكن حال « فرانس داليم » بأحسن منهم ، اذ وجه التوبيخ اليه ، بأنه « غفل تماما عن محاولة عملاء الاستعمار التسلل الى الحزب » . وعزل « ماكس فيشنر » من السكرتارية المركزية في يناير ١٩٤٩ م ، ثم عزل من الحزب في يوليو سنة ١٩٥٣ م بتهمة أنه « عدو الحزب والشعب » ، ثم قبض عليه بدعوى

أنه كوزير للعدل ، استخدم وظيفته في ١٧ يونيو سنة ١٩٥٣ (١) لحماية مثيرى الشعب الفاشيين من العقاب . كذلك أبعد « ايلي شميت » من الزعامة ، وعين في منصب عديم الأهمية نتيجة شبّهات حامت حوله في حوادث ١٧ يونيو . وفرض على « آكارمان » — وهو بلا شك عقلية لها أهميتها في السكرتارية المركزية — ممارسة عملية النقد الذاتى في خريف عام ١٩٤٨ م ، وأنزلوه درجة الى المكتب السياسى في يناير سنة ١٩٤٩ م وبعد حوادث ١٧ يونيو عزل من اللجنة المركزية لأنه كان يمثل « موقف التصالح » .

وهكذا فقد عشرة من الأربعة عشر عضوا في السكرتارية المركزية الذين انتخبوا في مؤتمر الوحدة بين تصفيق الوفود ، مراكزهم في غضون أعوام قليلة ، وأنزلوا الى درجات دانية ، واتهم البعض بأنه « عدو الحزب » فطرد منه . لم يكن الضحايا أقل بين الأعضاء الثمانية عشر في مجلس الحزب ، ولا بين القياديين البالغ عددهم أكثر من ألف ، الذين اشتركوا في مؤتمر الوحدة ، فقد وقع الجزء الأكبر منهم — بنوع خاص — ضحايا حملات التطهير التى شنت بعد عام ١٩٤٨ م ، فبعضهم نزل من مركزه بطريقة لينة نسبيا ، والبعض الآخر طرد من الحزب ، أو قبض عليه .

لو علمت كل هذا في مساء ٢٣ ابريل سنة ١٩٤٦ م لتبخرت فرحتى وتهليلى ولكن لم يكن قد خطر ذلك ببالى بعد — بالضبط مثل كل الذين حضروا هذا المساء ، وكانوا سعداء ، وغادروا « القصر » مفعمين بالأمل والفرحة معتقدين أنهم شاركوا في عمل وحدة الحركة العمالية الألمانية الكبير .



موسكو تعترف برأى « آكارمان »

تسلمت مسودة روسية من ضابط الاتصال السوفييتى بعد أسابيع قليلة من تأسيس الاتحاد الاشتراكى الألمانى :

(١) ثار الشعب في ألمانيا الشرقية في ذلك اليوم ضد الحكومة ، فنزلت الدبابات الروسية في الشوارع وقمعت الثورة بالقوة . ووقعت ضحايا كثيرة في هذا اليوم . م . شامة .

« أيها الرفيق « ليونهارد » .. من فضلك ترجم هذه ترجمة دقيقة الى اللغة الألمانية .. ففى تتعلق بمسألة هامة جدا » .

كان العنوان مخيبا للإمل : « ما هى الديمقراطية » ؟ غير أنى عندما قرأتها لاحظت أنها تتعلق بفهم سياسى جديد تماما ، اذ يدعو المقال الى صيغة ديمقراطية وسط لألمانيا ، « تكون بين الديمقراطية الوطنية ، والديمقراطية الاشتراكية .. وتكمن خاصية هذه الديمقراطية فى الرغبة فى سيادة أغلبية السكان مع الاحتفاظ بأسس نظام الاقتصاد الرأسمالى ، والاحتفاظ بوسائل 'الانتاج الخاصة' ، وينبغى أن ينحصر التغيير فى تصفية عصابات الاحتكار الرأسمالى ، وتنفيذ الاصلاح الزراعى ، والقضاء على البقية الباقية من الفاشية ، دون تطبيق صيغة ومضمون النظام السوفييتى ويبدو لنا أن هذا النموذج من الديمقراطية أكثر قبولاً لألمانيا فى المرحلة الحاضرة » .

ازداد اهتمامى عندما ترجمت بعد دقائق قليلة من الروسية : « فالاتحاد الاشتراكى لألماني ضد الاقتباس الآلى من النظام السوفييتى كما هو ضد الاقتباس الآلى من النظام الانجليزى أو الأمريكى ، أو الفرنسى وتطبيق ما يقتبسه فى ألمانيا » . تلقى حزبنا بهذا اشارة من أعلى المراكز السوفييتية بألا نقلد النظام السوفييتى حرفيا ، بل نطبق صيغة تكون بين الديمقراطية الوطنية فى الغرب وبين النظام السوفييتى !

انتظرت بأعصاب مشدودة ما يحدث مع هذه الديمقراطية . هل كانت اشارة داخلية فقط للقياديين الكبار ؟ هل ستسوخ منها أعداد وتوزع كتعليمات الى عدد أكبر من القياديين ؟

وعندما تسلم ضابط الاتصال الترجمة قال لى : « سينشر هذا المقال » .

تعجب كثير من القياديين عندما ظهر لأول مرة فى العدد التالى من مجلة النظريات « العصر الحديث » — ولم يحدث مثل هذا اطلاقا ، لا قبلا ولا بعدا — مقال لم يوقع عليه كاتبه ، بل وضع عليه ثلاثة نجوم صغيرة . ومن الطبيعى أن كل قيادى عرف أنه مقال من أعلى المستويات . ولم يمر مساء فى الأسابيع التالية ، دون أن يدور الحديث حول هذا المقال ، وقد دل هذا على أن الطريق الألمانى الخاص الى الاشتراكية لم يعد النظرية الرسمية لحزب الألمانى فقط ، بل نظرية موسكو .

أصبح الطريق المختلف الى الاشتراكية في عام ١٩٤٦ م جزءاً لا يتجزأ من « الخط » في الأحزاب الشيوعية في البلاد الأخرى .

ولا يرجع التقدم الكبير للأحزاب الشيوعية في كل البلاد في الفترة من عام ١٩٤٥ م الى عام ١٩٤٨ م الى مشاركة الشيوعيين في حركات المقاومة فحسب — وان كان ذلك عملاً هاماً — بل أيضاً الى حقيقة أن هذه الأحزاب أعلنت في ذلك الوقت أنها ضد التقليد احرفى للطريق السوفييتى .

بقى هذا السؤال مفتوحاً :

هل كانت موافقة « ستالين » والزعامة السوفييتية آنذاك على دعوى اتخاذ طريق خاص الى الاشتراكية صادقة ؟

هل كانوا مقتنعين حقاً بينهم وبين أنفسهم بضرورة سلوك طريق مستقل الى الاشتراكية في البلاد المختلفة ؟

أو أوحوا بهذه الدعوى فقط ، وطلبوا بها بهدف ترك الأحزاب الشيوعية تقوى ، ويشتد ساعدها ، ثم القاء هذه الدعوى في سجل المحفوظات عندما يتحقق الهدف ؟



الانتخابات الأولى

تركز عملنا كله في الأربعة أشهر الماضية على تحقيق الوحدة ، وقام الآن الحزب الموحد ، فماذا بعد ذلك ؟

شعرنا نحن القياديين — الذين لا يتصور لديهم حياة بدون نشاط سباسبى أو حملات دعائية — بالفراغ ، فلأول مرة لا يوجد ما نقوم به سوى الأعمال الروتينية .

كان جهاز الحزب المركزى مشغولاً في ذلك الوقت بأعماله الداخلية فقط : بتأثيث وتقسيم الحجرات في مبنى الحزب الجديد الضخم ، الذى يطلق عليه « منزل الوحدة » في شارع « لوترينج » رقم ١ ، وجمع هيئات تحرير جريدة الحزب الديمقراطى الاشتراكى السابقة « الشعب » وجريدة الحزب الشيوعى السابقة « جريدة الشعب الألمانية » ، وكذلك بتوزيع المناصب على أعضاء السكرتارية المركزية .

أصبح مقرنا في شارع « فال » رقم ٧٦ — ٧٩ — الذى كان يضم

(٣٣ — نظام الحكم الشيوعى)

سابقا السكرتارية المركزية للحزب الشيوعي الألماني — مقرا للقسم السياسي والدعاية ، الذي تغير اسمه الى قسم الثقافة والاعلام ، ولدار نشر الحزب أيضا •

أصبح كل منصب الآن مشغولا باثنين : قيادي من الحزب الشيوعي السابق ، وآخر من الحزب الديمقراطي الاشتراكي السابق ، وبهذا تضاعف عدد العاملين ، فصار العمل في جهاز الحزب ثقيلا وبطيئا ، وسار كل شيء أكثر تمهلا منه في الحزب الشيوعي الألماني •

وبعد أسبوعين عقد اجتماع لقسمنا « الثقافة والاعلام » فشرح فيه « أوتو جروتيفول » اقتراحا من السكرتارية المركزية : « فكرنا في أن نجعل الدروس الثقافية مرتين في الشهر بدلا من مرة في الأسبوع • • وأحب أن أقول ، ان ارهاق الرفقاء • • • » •

أعطاني « أولسنر » حتى اللقاء الكلمة الأولى في المناقشة ، ولكن لم تأت كلمتي في الدفاع عن الدروس لثقافية الأسبوعية بنتيجة ، وكما جرى في كل مكان في أجهزة الحزب ، فقد استبدلت طريقة العمل المحسومة نشاطا التي سادت في أجهزة الحزب الشيوعي السابق ، بطريقة العمل الهادئة للحزب الديمقراطي الاشتراكي •

هضت أسابيع عدة ، ثم لوحظ بوضوح انخفاض درجة الحماس في الدروس الثقافية الأسبوعية ، وفي الأنظمة الخاضعة للحزب • لا شيء أكثر خطرا على مثل هذا الحزب من الركود في بعض الأسابيع • لم يكن هناك واجبات ضرورية ، تشد أنفاس العاملين في أجهزة الحزب •

ثم أضيف الى ذلك خيبة أمل كبيرة : التباطؤ في الاعتراف بالاتحاد الاشتراكي الألماني ، فم يعترف به في برلين الا في ٢٩ مايو — أي بعد خمسة أسابيع من التأسيس — في 'اجتماع السابع والخمسين لحكمدارية الحلفاء • ولكن اعترف أيضا في نفس الوقت بالحزب الديمقراطي الاشتراكي الذي تأسس حديثا في أوائل العام •

تسرب الشك شيئا فشيئا الى بعض الذين يميلون الى التروى قبل الاقدام على العمل ، ربما كان ينبغي علينا الانتظار فترة أخرى ؟ ربما تمت الوحدة بأسرع مما يجب ؟ ألم يكن في امكاننا التوصل الى اندماج المنظمات اندماجا حقيقيا لو كان التطور أشد بطئا من هذا ؟

كان التباطؤ في الاعتراف بالحزب الجديد في برلين ، وشغل كل منصب باثنين ، وتضخم أجهزة الحزب ، وقبل هذا كله عدم العمل أسابيع ، سببا في أحداث عواقب سيئة على الحزب ، فلم يكن الاتحاد الاشتراكي الألماني في يونيو سنة ١٩٤٦ م هو نفسه الذي كان في نهاية ابريل . لم نكلف بواجبات جديدة الا في لنصف الثاني من يونيو ، فقد تقرر استفتاء شعبي في مقاطعة « زاكسين » في ٣٠ يونيو سنة ١٩٤٦ م حول نزع ملكية مجرمي الحرب والأعضاء المسؤولين في الحزب النازي ، ولم يكن الهدف من اجراء هذا الاستفتاء تدعيم قرار نزع الملكية ، فقد تقرر من قبل نقل ملكية مؤسسات الزعماء النازيين والمسؤولين عن الحرب الى يد الدولة ، بل كان الغرض منه في المقام الأول أخذ صورة عن الرأي السائد عند الشعب .

نزل الحزب — الذي أصابه الكسل والتعب من جراء عدم العمل أسابيع طويلة — بقلبه في هذه المعركة ، فتألم القياديون في جهازنا الذين رجعوا من « زاكسين » : « ان الموقف فظيع جدا .. فقد أصبح الناس سلبيين بدرجة لا تتصور » .

تحرك الحزب شيئا فشيئا ، ولكن عاد النشاط في قسمنا الى عهده الأول قبل بدء عملية الاستفتاء — يجب أن نعمل شعارات ولافتات لمقاطعة « زاكسين » : « قولك نعم من أجل السلام » ، « مؤسسات مجرمي الحرب والنازية في يد الشعب » .. فطبع منها مئات الآلاف ووزعت في مقاطعة « زاكسين » .

أعلنت نتيجة الاستفتاء الشعبي في ٢ يونيو : فما يقارب ٢٧ مليون صوتا (٧٧ر٧ ٪) « نعم » ، وقريبا من ٦٠٠ر٠٠٠ صوتا (١٦ر٥ ٪) « لا » ، وأكثر من ٢٠٠ر٠٠٠ صوتا غير قانونية ، فصرف النظر عن اجراء استفتاء في المقاطعات الأخرى ، وقامت أول مؤسسة يملكها الشعب .

وبعد النتيجة المرضية نسبيا تقرر 'اجراء أول انتخاب للمجالس المحلية في المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتي ، ولأننا كنا نتوقع نتيجة طيبة في « زاكسين » فقد تقرر أن يجري الانتخاب فيها في أول سبتمبر ، وفي « تورينجن » وقرى « زاكسين » في ٨ سبتمبر ، وفي « براندينبرج » و « ميكلينبرج » — حيث كنا نتوقع صعوبات —

في ١٥ سبتمبر • وحرّم من الادلاء بصوته أفراد الـ (١) السابقين ،
وأفراد الـ SD (٢) « الجستابو » (٣) كذلك القياديون السابقون في
N. S. D. A. P. (٤) ابتداء من رئيس اللجنة المحلية في القرية فما فوق
دارت مناقشات واسعة عندنا حول هذه المسألة : هل ينبغي أن
يقتصر الترشيح على الأحزاب الثلاثة — حزب الاتحاد الاشتراكي
الألماني ، وحزب الاتحاد الديمقراطي المسيحي ، والحزب الديمقراطي
الليبرالي — ، أو ينبغي أن نحاول بواسطة رجالنا دفع المنظمات
الجماهيرية — مثل اللجنة النسائية ، ورابطة نقابات العمال الحرة ،
ومنظمة الشباب الألماني الحر — الى تقديم قائمة مرشحين ، كي نكسب
بذلك أصواتا بطريق غير مباشر ؟

أيد معظم القياديين — الذين قاموا بنشاط في ألمانيا في عهد
« هتلر » — أن تشترك الأحزاب فقط في الانتخابات • « • فليس
لموضوع ادخال المنظمات الأخرى في الانتخابات أى معنى ، اذ قل أن
ينتخب أحد هذه المنظمات » • كان « أولبريخت » هو المدافع الوحيد عن
اشتراك هذه المنظمات الجماهيرية ، واستعمل نفوذه لتنفيذ هذا الرأي •
قدمت مراسم التودد والتقرب الى كل ، لينجح الاتحاد الاشتراكي
الألماني في الانتخابات ، يرجع من روسيا قبل الوقت المحدد أسرى
الحرب ، الذين حولوا فكريا هناك الى مناهضين للفاشية ، ليساعدوا
الاتحاد الاشتراكي الألماني في حملته الانتخابية •

وكان أهم من ذلك اتخذ اجراء آخر ، ففي ٢٠ يونيو سنة ١٩٤٦ م
عندما أعلنت مواعيد اجراء الانتخابات ، ظهر بيان مجلس الاتحاد
الاشتراكي الألماني يبين موقفه من أعضاء الحزب النازي السابق
العاديين ، وكان معدا قبل هذا بوقت طويل •

« لا يجوز لنا تكرار الخطأ الذي ارتكبه الحزب الشيوعي النمساوي
في انتخابات خريف عام ١٩٤٥ م فقدد كل الرفقاء النمساويون جمهور
الحزب النازي بواسطة طريقتهم البدائية في محاربة النازية ، فعزلوا
بذلك عن الجماهير » كانت هذه هي الحجة الداخلية (أى التي لم تنشر)

(١) قوات ماليشيا الحزب النازي •

(٢) جهاز أمن الدولة • (٣) المخابرات العامة •

(٤) حزب العمال الوطنى الاشتراكي : الحزب النازي •

الحاسمة للموقف الجديد ، وعلى الضد من ذلك أعلن رسميا : « يرى حزب الاتحاد الاشتراكي الألماني أن الوقت قد حان لقبول الأعضاء الصغار السابقين في الحزب النازي ، والذين شايعوه آنذاك ، قبولهم الآن في أجهزة بناء الديمقراطية » .

فهبت عاصفة من السخط والغضب في صفوفنا ، لم نكن نتوقعها بهذا الحجم ، فأیما كان الموضوع الذي يعالج في أى اجتماع للحزب ، كان أول المناقشين يتحدث أولا بغضب عن مسألة النازية . ولم يبق سوى شيء واحد فقط : الثقافة .

« يجب أن نكتب حالا كراسة ثقافية عن مسألة علاقة الاتحاد الاشتراكي بأعضاء الحزب النازي السابق العاديين . فأجل الموضوع الذي كان مقرا من قبل أن تعالجه الكراسة في أسبوعين لأن هذا الموضوع الجديد أهم من كل شيء آخر الآن » . وبعد ذلك بأسبوعين قضيت مع « آكارمان » فترة ما بعد ظهر يوم الأحد ومساءه ، لنضع الصيغة الأخيرة ، لأكثر الكراسات تعقيدا حتى الآن ، وأخيرا وقع عليها مصرحا بالطبع .

« أولسنر » في « زاكسين » ، ولا تكفى الكراسة الثقافية ، ولذا يجب عليك أن تكتب مقالا في نفس الموضوع في جريدة « ألمانيا الحرة » — « تحت أى عنوان ؟ »

— « اتجاه الحزب الواضح في مسألة النازية » . بدت لى المبالغة في هذا ، وأخيرا تقرر أن يظهر المقل الثقافى تحت عنوان « مجرمو الحرب والمسؤولين في الحزب النازي ، وأعضاؤه العاديون » وختمت مقالى بهذه الفقرة :

« .. تحديد حاسم واضح ، ليس طبقا للظواهر ، بل للمواقف ، عقاب سريع رادع لمجرمى الحرب الذين صدر منهم هذا الاجرام ، واجراءات تكفير عن السيئات ضد أولئك الذين كانوا نشطين في الحزب ، الذين كانوا حملة السياسة والمدافعين عن الأعمال الاجرامية في الحزب النازي ، ويحاولون اليوم تشويش الجو على حركة البناء الجديدة ، ولكن يعنى من هذا كله أولئك الملايين العديدة من أعضاء الحزب النازي السابق ، الذين يريدون بصدق واخلاص اتخاذ طريق جديد .. »

وهكذا ، وفقط بهذا الأسلوب يمكن أن تحل مسألة معاملة النازيين حلا صحيحا » .

اقتنعت شخصيا بهذا ، ولكن لم يكن من السهل أن يقتنع الرفقاء بهذا الرأي في الحلقات الثقافية ، وقد جند لها كل القياديين السابقين ، فقد كان المعارضون للنزوية — اذين لا يفرقون بين النازيين المذنبين حقيقة وبين النازيين العاديين — أقوىاء لدرجة ، أنه لم يكن من الممكن اقناعهم بالفرق الواضح لا بشق الأنفس .

ثم بدأت بعد هذا مباشرة اجتماعات — أوحى بها ونظمها الاتحاد الاشتراكي الألماني — مع أعضاء الحزب النازي السابق . « لقد زادت المسألة عن حدها » قال ذلك بعض القياديين ، وعارضهم آخرون ، تأثروا بهذه الاجتماعات قائلين : « ان من بينهم أناسا مدهشين جدا ، ويمكن أن يصبحوا غدنا من الممتازين نشاطا ونجاحا ، فلا تتذمروا كثيرا » .

رجع « فالديمار شميت » — انذى قضى عشر سنوات تقريبا في معسكرات الاعتقال — الى المنزل ذات مساء من أحد الاجتماعات مع الأعضاء العاديين في الحزب النازي السابق ضاحكا وقال لى : « لقد شاهدت كثيرا ، ولم أحلم بهئلا هذا قط ، فاناس متحمسون لبيان الاتحاد الاشتراكي تحمسا شديدا ، وختم أحدهم خطابه الحماسي بشعار صاغه بنفسه » .

نظر الى « فالديمار شميت » مبتسما ، ثم قال : « لقد ألفت بنفسك شعارات كثيرة ، ففكر قليلا ، وقل لى بأى شعار صاح هذا الخطيب » ؟ ذكرت له بعض الشعارات ، ولكنه هز رأسه ، ثم قال :

« كان شعار هذا الذوى الصغير أحسن بكثير ، لقد صاح بأعلى صوته : يحيا الاتحاد الاشتراكي الألماني ، الصديق الحميم للنازي الصغير » !

بعد أن سكنت عاصفة خطنا الجديد بالنسبة للأعضاء العاديين في الحزب النازي السابق ، وجه الأعضاء والقياديون كل قواهم في حملة الدعاية لانتخاب المجالس المحلية . وكان وضعنا ممتازا جدا : لا يستطيع أى حزب ترشيح أحد من أعضائه فى أى منطقة الا اذا كان له أكثر من فرع فيها ، فلحزب الاتحاد الاشتراكي الألماني فرع فى كل مركز ، وكل قرية ، أما حزب الاتحاد الديمقراطي المسيحى ، والحزب الديمقراطي الليبرالى فلم يصل الى هذا الحد فى انشاء فروعهما ، ولهذا لم يرشح أحد فى كثير من المناطق سوى عضو الاتحاد الاشتراكي . ولم يكن من

المفاجآت أن يحصل الاتحاد الاشتراكي في انتخابات « زاكسين » التي جرت في أول سبتمبر على أصوات أكثر من مجموع ما حصل عليه حزب الاتحاد الديمقراطي المسيحي والحزب الديمقراطي الليبرالي من أصوات ، إذ حصل الاتحاد الاشتراكي على ١٨٥١ر٦٠٠ صوتا ، والحزب الديمقراطي الليبرالي على ٢٧١ر٦٧١ صوتا ، وحزب الاتحاد الديمقراطي المسيحي على ١٤٧ر٦٥٥ صوتا ، ولم يحصل ما كان يسمى « بالمنظمات الجماهيرية الا على ٦٠٠٠٠٠ صوتا مجتمعة .

كانت الحملة الانتخابية في قري « زاكسين » وفي « تورينجن » أكثر احتداما ، فقد كان نشاط الأحزاب الوطنية أكبر مما توقعنا . وحدث اضطراب ، عندما علقت أوساط معينة في الحزب الديمقراطي الليبرالي في « هاللي » يافطة دعائية على ترام يسير في شوارع المدينة قبل الانتخاب بيوم واحد ، كتب عليها : « من أجل الارتباط بالاتحاد السوفييتي ، انتخبوا الاتحاد الاشتراكي » .

كانت انتخابات أغسطس في « زاكسين — أنهالت » وفي « تورينجن » أكثر صعوبة بالنسبة للاتحاد الاشتراكي الألماني منها في « زاكسين » . وتضاعفت الجهود أكثر بالنسبة للانتخابات التي ستجرى في ١٥ سبتمبر في « براندينبرج » وفي « ميكلينبرج » .

أخبرنا الرفقاء بعد أن قاموا برحلة عبر المنطقة عن المناقشة الحادة حول موضوع : خط « أودر — نايسى » . وحدث هذا خاصة في « ميكلينبرج » لأنه استوطنها عدد كبير من اللاجئين القادمين من المناطق الواقعة في الطرف الآخر من « أودر — نايسى » ، وقيل هناك : « يجب عمل شيء في هذا الموضوع » .

نشر « ماكس فيشنر » بيانا في آخر يوم قبل إجراء الانتخابات : « أحب أن أوضح الوضع بالنسبة للحدود الشرقية لألمانيا ، ان الاتحاد الاشتراكي الألماني سيقف في وجه أي محاولة تستهدف استقطاع أجزاء من ألمانيا ، فالحدود الشرقية هي حدود مؤقتة فقط ، ولا يمكن أن تثبت الا في مؤتمر سلام ، تشترك فيه كل الدول الكبرى المنتصرة » (١) فتتفلس أعضاء الحزب الصعداء ، وتلى تفسير « فيشنر » في كل مؤتمرات الحملة الانتخابية ، بين التصفيق الحاد من الحاضرين ، غير أن من

(١) جريدة ألمانيا الحرة في ١٤ سبتمبر سنة ١٩٤٦ .

المواضح أن ذلك استمر في التصعيد دون توقف ، وفضلا عن ذلك فلم يبد من المستحسن أن يظهر قيادى من طبقة القمة في الاتحاد الاشتراكى بمثل هذا التفسير ، ويتباهى به في الحملة الانتخابية . ولهذا ظهر بعد ذلك بوقت قصير بيان رسمى من مجلس الحزب الأعلى ، أضعف من صيغة التفسير السابق : « سوف يفعل الاتحاد الاشتراكى الألمانى كل شئ ، كى يسمع صوت الشعب الألمانى أيضا حول مسائل حدود ألمانيا الجديدة في مؤتمر اسلام » (١) .

انتهت انتخابات المجالس المحلية — كما كان متوقعا لها — بانتصار كبير لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، فقد حصل فى كل المقاطعات الخمسة فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى على ٧٦,٣ ٪ ، وكان مجموع أصواته مع مجموع أصوات ما يسمى « بالمنظمات الجماهيرية » ٨٢ ٪ تقريبا .

لم ننخدع فى قسم الثقافة والاعلام بهذه النتيجة ، فقد علمنا أنها لا تتطابق مع الأصوات الحقيقية ، بل يرجع الفضل فيها الى وضعنا المفضل ماديا وسياسيا .

كانت انتخابات مجالس المراكز وبرلمانات المحافظات أكثر صعوبة ، فقد وجدت قوائم تمكن النخب فى كل من مكان انتخاب الحزب الديمقراطى الليبرالى وحزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى بجانب حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، فجندت كل القوى المتاحة حتى آخر شئ موجود عندنا فى هذه المعركة . ورغم كل الجهود التى بذلت ، فلم يحصل الاتحاد الاشتراكى فى المتوسط الا على ما يقرب من نصف الأصوات ، فقد فاز بـ ٢٤٩ مقعدا من مجموع القاعد وعددها ٥١٩ مقعدا ، وساعدت « المنظمات الجماهيرية » فى هذا الموقف فقد كان عدد نوابها ١٦ ، منهم ١٢ من أعضاء الاتحاد الاشتراكى ، وبهذا ارتفع عدد أعضاء الاتحاد الاشتراكى الألمانى الى ٢٦١ عضوا ، ففاز بأغلبية ضئيلة فى برلمانات المحافظات فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى .

ينص قانون الانتخابات على اجراء انتخابات المجالس المحلية كل

(١) « موقف الاتحاد الاشتراكى الألمانى من مسألة الحدود » — بيان مجلس الحزب الأعلى للاتحاد الاشتراكى الألمانى فى جريدة « ألمانيا الجديدة » فى ٢١ سبتمبر سنة ١٩٤٦ .

سنتين . أى يجب أن تجرى الانتخابات التالية فى عام ١٩٤٨ م ، وانتخاب
مجلس المراكز وبرلمانات المحافظات بعد ثلاث سنوات ، أى يجب
أن تجرى الانتخابات التالية فى عام ١٩٤٩ م .

قال القياديون المتفائلون بعد ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٤٦ : « سيكون
الوضع أحسن فى الانتخابات القادمة » ولكن لم تجر انتخابات بعد ذلك .
كانت انتخابات أكتوبر سنة ١٩٤٦ أول ، وآخر انتخابات تجرى
فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، يوضع فيها
الناخب أمام اختيار سياسى ، اذ لم يوجد منذ ذلك التاريخ سوى
قائمة موحدة .



الهزيمة فى برلين

كان واضحا لنا أن انتخابات المجالس المحلية وبرلمانات المحافظات
فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى كانت مقدمة
تمهيدية ، وسيكون القرار الحاسم فى انتخابات برلين التى ستجرى فى
٢٠ أكتوبر سنة ١٩٤٦ م .

كان الرأى السائد فى « منزل الوحدة » أنهم متأكدون من النصر .
أصدر « فيلهيلم بيك » بيانا فى ٢٦ سبتمبر ، كان من الممكن أن يكون
له أثر فى حصول الاتحاد الاشتراكى الألمانى على أغلبية الأصوات ،
أو على أقل تقدير سيتقدم كل الأحزاب الأخرى .

لم يكن هناك تفاؤل فى هيئة قيادة الاتحاد الاشتراكى الألمانى ،
فقد حصلت على صورة واضحة — بدون رتوش — للموقف ، عن طريق
المناقشات العديدة مع « فالديمار شميت » عندنا فى المسكن . كذلك
استعملت المواصلات العامة فى الأسابيع السابقة على اجراء الانتخابات ،
وردت المطاعم والمحلات فى مناطق غرب برلين ، وأنصت الى أحاديث
كثيرة ، فاندعشت جدا من التعارض الشديد بين الرأى العام وبين
التفاؤل الذى ساد « منزل الوحدة » !

اقترح أحد القياديين أثناء لقاء أخوى ودى للقياديين المسؤولين
فى برلين : « نريد أن نرى تقدير الموقف الصحيح ، فم رأيكم فى أن
يكتب كل واحد منا على ورقة نسبة الأصوات التى سيحصل عليها كل
حزب حسب تقديره للموقف » ؟

وعندما قرأت عليهم ورقتي ، اندهشوا جميعا : فقد كتبت فيها ٣٠٪ لحزب الديمقراطي الاشتراكي و ٣٠٪ لحزب الاتحاد الاشتراكي الألماني ، و ٢٥٪ لحزب الاتحاد الديمقراطي المسيحي ، و ١٥٪ للحزب الديمقراطي الليبرالي . كان تقديري لما سيحصل عليه الاتحاد الاشتراكي من نسبة الأصوات أكثر تشاؤما من تقديرات كل الحاضرين ، رغم أنها كانت لا تزال بعيدة عن الوضع الحقيقي .

قضيت مساء ٢٠ و ليلة ٢١ أكتوبر في مقر هيئة تحرير جريدة « ألمانيا الجديدة » ، وتوالت التقارير في هذه الليلة ، فاستطعنا الحصول على صورة للوضع أولا بأول .

وتوقعا للانتصار في الانتخابات ، وضعت مكبرات الصوت على مبنى هيئة تحرير الجريدة من الخارج لنتمكن من إذاعة النتائج فور وصولها على الجماهير التي تجمعت خارج المبنى .

كانت نتائج الانتخابات الأولى التي وصلتنا من بيوت اقامة المسنين والمستشفيات في أحياء برلين الشرقية غير مشجعة لنا ، فقد كان متوسطها كما توقعت سابقا ٣٠٪ للاتحاد الاشتراكي الألماني . ثم جاءت الأخبار السيئة واحدا بعد الآخر ، فازدادت مظاهر الاكتئاب على وجوهنا شيئا فشيئا ، وشد المذيع — الذي كان مكلفا بإذاعة النتائج على الجماهير المنتظرة خارج المبنى — شعر رأسه ، فبحث يائسا بين الأخبار المتدفقة عن خبر حسن بالنسبة للاتحاد الاشتراكي الألماني . فحاول انقاذ نفسه بتكرار إذاعة النتائج الأولى التي جاءت من بيوت اقامة المسنين والمستشفيات في أحياء برلين الشرقية ولكنه عندما استمرت صيحات الاحتجاج في الخارج في ازدياد مطرد : « سمعنا هذا من قبل ، نريد أن نعرف الجديد » ، قال أحد الأعضاء الكبار في هيئة التحرير : « كفوا عن هذا الهراء وأوقفوا هذه الاذاعة الحمقاء » .

حاولنا تهدئة أنفسنا ، فقال واحد : سترفعنا الأحياء العمالية ، « فريدريش — أنهالت » و « فيدينج » و « ليشتينبرج » و « نويكولن » ولكني لم أعد أعتقد في هذا .

كان الموقف يزداد سوءا في كل ربع ساعة ، وأظهر مجموع التقارير الأولى هزيمة منكرة للاتحاد الاشتراكي الألماني ، ونصرا ساحقا للحزب الذي سميناه « نادي مستشفى تسيليندورف » ، وفي الأسبوع الأخير سميناه « فضلات الحزب الديمقراطي الاشتراكي » .

أصبح « فضلات أحزب الديمقراطية الاشتراكي » في غضون فترة قصيرة أهوى حزب في برلين بلا منازع • ازداد الصمت في حجرة هيئة التحرير ، فسارت الأخبار في طريقها في صمت عبر مراحل تجهيزها في النجريد ، ولم يقطع الصمت الا نداء أخير يائس : « ماذا ينبغي أن أكتب ؟ »

لم أنتظر النتائج النهائية ، بل ذهبت الى قيادة المنطقة في « بانكوف » فرأيت بعض القياديين في المنطقة متحلقين حول جهاز الراديو ، ولكنهم حيونى ببشاشة دون انطق بكلمة • كان هناك كثير من العاملين في اللجنة المركزية لذين يقيمون في حي « بانكوف » ، ولكنى كنت الوحيد الذي ذهب اليهم في هذا المساء • قال لي أحد الحاضرين همسا : « انتهى الراديو توا من اذاعة مجمل النتائج التي ظهرت في كل مناطق برلين ، فكان الاتحاد الاشتراكي في المرتبة الثالثة ، حتى بعد حزب الاتحاد الديمقراطي المسيحي » • وكان الآخرون صامتون ، لم ينطقوا بكلمة واحدة •

سمعت في الصباح الباكر النتائج النهائية : حصل الحزب الديمقراطي الاشتراكي على ٤٨٧٪ وحزب الاتحاد الديمقراطي المسيحي على ٢٢١٪ وحزب الاتحاد الاشتراكي الألماني على ١٩٨٪ والحزب الديمقراطي الليبير الى ٩٤٪ من مجموع الأصوات • كان سبب الهزيمة واضحا لي ، كما كان واضحا لكثير من القياديين ، فنحن معروفون عند الشعب بأننا « حزب روسي » • نعم • • لقد رسمنا طريقا ألمانيا مستقلا الى الاشتراكية ، ولكن لم يكن هذا معروفا ومفهوما الا في محيط صغير ضيق جدا بين أفراد الشعب • ومن الناحية العملية ، فقد أيدنا ودافعنا عن كل اجراءات سلطة الاحتلال السوفييتي ، وحصلنا منهم على أوراق ، وعربات ، ومنازل ، وهواد تموينية خاصة • وأقام قباديونا الكبار في « فيلات » كبيرة ، وانعزلوا بعيدا عن بقية الشعب ، تحرسهم قوات الجيش السوفييتي ، وركبوا عربات يحمل بعضها الأرقام السوفييتية •

كانت نتيجة الانتخابات منطقية لارتباطنا بسلطة الاحتلال السوفييتي ، فلم يصوت سكان برلين ضدنا — هكذا قلت لنفسى — لأنهم لا يؤيدون الاشتراكية ، وهم لم يصوتوا أيضا ضد تضحية الأعضاء بالنفس والنفيس » ، ولا ضد القياديين الذين فعلوا — بقدر ما أمكنهم —

كل شيء ، ليخففوا أحوال الضيق المعيشية على الشعب ، صوتوا ضدنا لأنهم — وللأسف لم يكن هذا صوابا — اعتبرونا حزبا مرتبطا بالاتحاد السوفييتي •

ولم يكن ينقذنا سوى شيء واحد : فصل واضح من سلطة الاحتلال السوفييتي ، والاقرار الواضح بارادة العمل ، كحزب اشتراكي ألماني مستقل • ربما — هكذا فكرت في تلك الليلة — تدفع هزيمة انتخابات أكتوبر الى اتخاذ هذه الخطوة ، فنصل بهذا الى نهاية أخيرة ايجابية • رجوت أن يشرح زعماء الحزب أسباب الهزيمة الحقيقية بأسلوب مفتوح ، ويتخذون القرارات اللازمة لذلك •

تألق هذا العنوان في عدد جريدة « ألمانيا الجديدة » الصادر في صباح ٢٢ أكتوبر : « نصر انتخابي ساحق للاتحاد الاشتراكي الألماني في المنطقة السوفييتية » •

بعد نتائج الانتخابات في المنطقة السوفييتية — هكذا كانت المبالغة في التفسير — جاء أخيرا ما كان ينتظره كل القراء في هذا الصباح : التعقيب على الانتخابات في برلين « النتائج الكلية في برلين •• تعكس الاهتزاز السياسي عند جزء كبير من طبقات المنتخبين الوطنية الصغيرة • لم يعبر عن المفهوم السياسي لانتخابات برلين بوضوح كاف • فلم يأت القرار ملبيا رغبة الاتحاد الاشتراكي السياسية والاقتصادية ، ولا مطابقا للجهود ، التي بذلت حتى الآن في التعمير والبناء ، بل نتيجة لحملة الصحافة الرجعية ، التي شنت ضد الاتحاد الاشتراكي أسابيع عدة ، واعتراضاتها التي سارت بجانب الآراء السياسية الكبرى » •

لم تذكر كلمة واحدة عن أنه لم يصوت المنتخب الوطني فقط ضد الاتحاد الاشتراكي ، مع الحزب الاشتراكي الديمقراطي ، بل أيضا الغالبية المطلقة من عمال الصناعة في برلين ، ولم يصدر أي بيان عن أسباب استطاعة صحافة الغربية التأثير على الناخب بهذه الدرجة الكبيرة ، ولم تظهر أي إشارة بسيطة الى أن هذه الهزيمة ، يمكن أن يكون لها علاقة بارتباط الاتحاد الاشتراكي الألماني بالاتحاد السوفييتي ، وبسلطة الاحتلال السوفييتي •

ألقيت الجريدة من يدي خائب الرجاء ، بل يائسا ، فأنا أعرف أن

رئيس هيئة التحرير — صديقى « ليكس ايندى »^(١) الذى أقدره كثيرا — لا يملك من الأمر شيئا ، فقد عبر فى مقاله عن التعليمات التى وصلتته من الجهات العليا • كذلك لم يحلل بيان الحزب الموقف ، ولا وضح الأسباب الحقيقية للهزيمة •

وبعد أيام قليلة تلقيت دعوة من أحد كبار الضباط فى الإدارة السياسية للقيادة العسكرية السوفيتية ، وهو أحد أولئك القياديين السياسيين الذين أعدوا ثقافيا أثناء الحرب اعدادا كاملا ، وتعرفت عليهم فى أوائل مايو سنة ١٩٤٥ فى « بروخيملى » •

لم يكن قد مضى على الهزيمة فى برلين سوى أيام قليلة ، ولكنه تحدث بعدم اهتمام ، كما لو كان قد مضى على ذلك زمنا طويلا • حيث قال بنغمة كسولة : « لقد قضيت الأيام الأخيرة فى تحليل نتائج الانتخابات ، فهى مثيرة للاهتمام بدرجة كبيرة جدا » •

لم أدر ماذا أقول تعقيا على هذا الكلام ، فصمت متوقعا أن يقول هو شيئا عن سياسة الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، ولكنه قال شيئا آخر : « هل تعلم أيها الرفيق « ليونهارد » أنه لا يمكن الوصول الى تحليل حقيقى ، الا اذا كان هناك حزب خامس فى الانتخابات !
— « حزب خامس ؟ »

— « نعم • • حزب خامس — ولنقل حزب الـ « تلغراف » — فالـ ٤٨٧٪ التى حصل عليها الحزب الديمقراطى الاشتراكى ، ليسوا كلهم أصواتا ديمقراطية اشتراكية أصيلة ، فهم انتخبوا الديمقراطيين ، لأن التلغراف قال لهم ذلك ، وأحب أن أعرف بالضبط ، كم عدد الديمقراطيين الاشتراكيين ، وكم عدد أنصار حزب « التلغراف » •
لم يكن هذا ما توقعته من ضابط سوفيتى كبير بعد يومين من هزيمة الاتحاد الاشتراكى الساحقة ، ولكن أفكاره أثارت اهتمامى ، بل كانت أكثر اهتماما من البيان الرسمى الذى أصدرته زعامة حزب الاتحاد الاشتراكى فى ذلك الوقت •

(١) كان « ليكس ايندى » محررا عبقريا ممتازا ، أصدر قبل عام ١٩٣٣ « البريد الأحمر » وأثناء نفيه فى باريس « الهجوم المضاد » — طرد من الحزب مع « باول ميركر » وآخرين من « المنفيين الغربيين » فى قضية « نويل فيلد » ، لأنهم قدموا مساعدات على نطاق واسع للعدو الطبقي ، ذهب « ليكس ايندى » بعد طرده من الحزب الى مدينة « أوى » ومات هناك كمدا بعد أشهر قليلة •

— « ألاحظ أيها الرفيق «ليونهارد» أنك مندهش لأنى لم آخذ الأمر مأخذ المساة ، ألا ترى ! لقد توقعت هذه النتيجة بالضبط ، فلماذا أتعجب الآن ؟ »

ثم تحول الحديث الى أشياء أخرى • هل دعانى حقيقة ليقول لى عن تفكيره فى حزب التليغراف ؟ •
وعندما هممت بالانصراف قال لى مبتسما : « آه •• أريد أن أسألك عن شيء » •

والآن يجب أن يأتى الشيء الحاسم •

— « فكرت فى هذه الأيام مع بعض الأصقاء فى مسألة هامة • تصور أيها الرفيق «ليونهارد» ! لو جرت انتخابات فى برلين وفى المنطقة السوفييتية ، لا تخضع لأى تأثير اطلاقا — يعنى بدون دعاية ، وبدون توزيع منشورات خاصة — وسيكون السؤال المطروح هو : هل تؤيد الغرب أم الشرق ؟ ماذا ستكون نتيجة مثل هذه الانتخابات طبقا لتقديرك الشخصى ؟ »

ترددت قليلا — فلاحظ انضابط الذكى ذلك •

— « الآن •• الآن أبها الرفيق «ليونهرد» لا تردد هنا ، فنحن وحدنا ويهمنى جدا معرفة رأيك الحقيقى » •

— « حسنا •• هاهو ذا رأيى الحقيقى : ستكون نتيجة مثل هذه الانتخابات طبقا لفهمى الحالى كما يلى : من ١٤ — ٢٠ ٪ للشرق ، ومن ٨٠ — ٨٥ ٪ للغرب » • لم يتقبل اجابتي بهدوء فقط ، بل بابتسامة اخوة وصداقة قائلا :

« عندك احساس صادف بأصوات الجماهير ، لقد توصلنا الى نفس النتيجة أيضا » •

تعليم •• تعليم •• تعليم

احتل قسمنا فجأة مركز الاهتمام بعد أيام قليلة من هذا الحديث ، فقد أصبح مركز الثقل فى لعمل السياسى موضوعا الآن على التعليم • أظهرت الانتخابات أن مواجهة الأعداء باغراق الجماهير بملايين المنشورات لا توصل الى الهدف ، فبدأ الآن التراجع المؤقت ، لتنظيم القوى وتدعيمها ، وكان التعليم المكثف ضروريا فى هذه الخطوة •
أعلن فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٤٦ م قرار خاص من زعامة الحزب ،

يتعلق فقط بالنشاط التعليمي ، اذ استنكر أن « النشاط في حقل التعليم أهمل في الأشهر الأخيرة » ، وان القرارات التي صدرت حتى اليوم في هذا الموضوع « لم تنفذ بطريقة مرضية » . ثم تلت التعليمات الحاسمة : « ونظرا لهذا الوضع ، فان لجنة رئاسة حزب الاتحاد الاشتراكي الألماني ترى أن أهم واجبات الحزب كلها الاهتمام من الآن فصاعدا بالنشاط الثقافي والتعليمي ، بطريقة مكثفة » .

وكان من المسلم به أن حضور الدروس الثقافية المسائية كان « واجبا على كل عضو في الحزب » . فبدأت حملة دعائية منظمة في كل صحافة الحزب للمواظبة على حضور هذه الدروس .

وفرض على هيئة زعامة حزب الاتحاد الاشتراكي في المقاطعات انسقة انشاء مدارس على نظام المدارس الداخلية في جميع المراكز المائة والثلاثين المنتشرة في المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتي ، حيث يدرس في المدرسة الواحدة عدد يتراوح بين ٦٠ ، ٨٠ دارسا — حسب حجم المركز — لمدة أسبوعين . وامتدت مدة الدورة الدراسية في مدارس المقاطعات الست من أربعة أسابيع الى ثلاثة أشهر . لم يستطع قسمنا — الذي زحزح الى الصف الأخير في الأشهر الأخيرة قبل الانتخابات — انقاذ نفسه من الاجتماعات المتعددة ، والتعليمات الكثيرة والواجبات التي كلف بها .

جاء الينا « جروتيفول » في نفس اليوم الذي أعلن فيه قرار التعليم ، لكي يشرح لنا العمل بالتفصيل : « لقد وضعنا خطة تقضى بأن نعلم في مدى عام واحد ١٨٠.٠٠٠ من أعضاء الاتحاد الاشتراكي في مدارس المراكز في دورات دراسية ، تستغرق الواحدة ١٤ يوما ، ويجب أن ينفذ هذا ، وسينفذ » .

تعليم ١٨٠.٠٠٠ في عام واحد ! — لقد تعودت على بعض الأشياء ، ولكن ظهر لي أن هذا من الصعب تنفيذه . هل تكفي مدارس المراكز المزمع فتحها ؟

بينما كان « جروتيفول » يواصل حديثه ، قمت بعملية ، حسابية : ١٣٠ مدرسة بمتوسط ٦٠ دارسا في ١٤ يوما مدة الدورة الواحدة ، اذن نحتاج الى ٢٤ دورة دراسية في العام .

كانت عملية الحساب بسيطة ، لو نفذ هذا الاقتراح مائة في المائة ، لتخرج ٨٠٠ ر ١٨٧ دارس .

كانت الكلمة الأخيرة : « الى العمل » !

سافر سكرتاريو المدارس الى المراكز ، واستولى على مباني ، ونظمت عملية توريد المواد الغذائية ، ثم وصلت الأخبار الأولى عن فتح مدارس المراكز بعد أسبوعين .

كنا في أثناء ذلك مشغولين بتجهيز كتب تعليم سياسية لـ ١٨٠.٠٠٠ ر. دارسا ، وهم الذين ينبغي أن يثقفوا في غضون الاثنى عشر شهرا القادمة .

لم نعرف يوم العمل العادى ، فقد كنا نعمل حتى ساعة متأخرة من الليل ، وبعد عشرة أيام — أى فى الميعاد المحدد — انتهى العمل من مسودة الكتاب التعليمى لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، وراجع « أولسنر » و « آكارمان » ثم أرسل الى دار « ديتس » للنشر ، مصحوبا بالتعليمات الآتية :

« يجب التوقف عن الاستمرار فى طبع الكتب والمذكرات ، التى ابدأ العمل فى طبعها ولم تكمل بعد ، فلا بد من الانتهاء من طبع الكتاب التعليمى لحزب الاتحاد الاشتراكى فى الميعاد المحدد ، مهما كانت الظروف » .

اجتمعت لجنة الحزب العليا بعد ثلاثة أشهر ، وأصدرت بيانا آخر عن التعليم : « ترى اللجنة العليا للاتحاد الاشتراكى الألمانى بارتياح أن تنفيذ القرار الصادر فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٤٦ م بشأن العمل الثقافى ، قد خطا خطوة كبيرة الى الأمام » .

امتدت فترة الدراسة فى مدارس المقاطعات الى ثلاثة أشهر ، وفتحت مدارس فى كل لمراكز تقريبا ، وفى ديسمبر سنة ١٩٤٦ تم اعداد المدرسين الذين سيدرسون فى هذه المدارس ، وكان مفروضا على كل مدارس المراكز الالتزام بكتابنا التعليمى ، وكلفت هيئة تحرير الجريدة من جديد بتكثيف حملة الدعاية لعمل الثقافى ومساندتها أكثر من ذى قبل . وكلفت لجان الاتحاد الاشتراكى فى المقاطعات الست بتنظيم حلقات دراسية — بجانب مدارس المراكز ، ومدارس المقاطعات — على مستوى عال لاعداد القياديين من أعضاء الاتحاد الاشتراكى الألمانى .

وصل تقرير عن الجهد المبذول فى هذا المجال الى قسمنا فى منتصف ابريل سنة ١٩٤٧ فاستطاع « أولسنر » أن يذكر لنا أعدادا ضخمة ،

فقد طبع من كراستنا التعليمية أكثر من ٢ مليون نسخة في طبعة واحدة ، ودرست مدارسنا في المقاطعات الستة كل الـ ٢٤ موضوعا المحددة في الخطة ، فخرجت أعداد كبيرة من المدرسين للتدريس في مدارس المركز • ونظم معهد الحزب العالى المسمى « معهد كارل ماركس » دورات دراسية مدة الواحدة ستة أشهر لاعداد قيادى الحزب من الطبقة العالية ، وانتهت الاستعدادات لتثقيف قوى متخصصة فى النواحي السياسية العلمية • وستبدأ فى الأسابيع القادمة دورة دراسية مدتها سنتين فى معهد الحزب العالى •

ورغم كل هذه الجهود التى بذلت ، فلم يتركنا « أولسنر » نلتقط أنفاسنا حين قال : « نجاحنا ناقص وضئيل ، اذا قارناه بما يطلبه الحزب اليوم منا » •

لم تكن هذه الكلمة عشوائية ، فقد ازداد نشاط العمل فى الحقل الثقافى منذ أوائل عام ١٩٤٧ م ، واتسعت مجالاته ، ولم تخلق المسائل المالية أى عقبة ، فقد هبَّت كل الاحتياجات بسخاء • ولم يلتفت الى القياديين فى مجال التعليم حتى نفذت الخطة الدراسية الى آخر حرف ، فخرج أكثر من ١٠٠٠٠٠٠ دارس فى مدارس المراكز ، ولكن بذل أيضا أكثر من ألف من المشتركين فى مدارس المحافظات مجهودا جبارا • ظهرت نتيجة هذا العمل بسرعة ، فكلما زرت بصفة مستمرة مدرسة المقاطعة فى برلين و « براندينبرج » لالقاء محاضرات ، كنت أحس بالتقدم فى المستوى السياسى •

وهكذا كون حزب الاتحاد الاشتراكى نفسه خطوة خطوة ، دون أن يؤثر فيه الفشل أو الهزيمة فى الانتخابات ، وهى صابرا جيلا من القياديين المثقفين الخاضعين لتعليمات الجهات العليا •



بدء التحول الى السوفييت

كلما ازداد نشاطى فى العمل الثقافى ، وفرحى بالنجاح فى هذا المجال ، كلما اشتد قلقى تجاه سياسة حزب الاتحاد الاشتراكى بعد الهزيمة فى انتخابات ٢٠ أكتوبر سنة ١٩٤٦ م ، فلم يسلك الطريق الى تحقيق استقلال أوسع ، بل سار فى طريق معاكس : فقد قوى الارتباط بالاتحاد السوفييتى وبسلطة الاحتلال السوفييتى •

أقام الاتحاد الاشتراكي احتفالا ضخما في ٧ نوفمبر ، بمناسبة يوم السيد الرسمي السوفيتي ، وعلى لحسن مما حدث في عام ١٩٤٥ م فقد نشر في هذه المناسبة النص الحرفي للخطب التي ألقاها الزعماء السوفييت .

كذلك بولغ في الاحتفال بيوم الدستور السوفيتي في ٥ ديسمبر سنة ١٩٤٦ م ، ونشر في ٢١ ديسمبر — وهو يوم عيد ميلاد « ستالين » السابع والستين — مقال طويل ، كتبه « فيلهيلم بيك » ، ومما جاء فيه : « ان بعد النظر الحاد عند الزعيم السوفيتي ، يرى الشعب الألماني الطريق أيضا » .

ثم جاءت الخطوة التالية في منتصف يناير سنة ١٩٤٧ م فقد استدعى المارشال « سوكولوفسكي » ووكلاؤه ، وكذلك رئيس الادارة السياسية العقيد « تولبانوف » ، استدعوا زعماء الاتحاد الاشتراكي : « بيك » و « جروتيفول » و « أولبريخت » ، و « فيختر » لاجراء محادثة معهم ، ثم أعلنت نتيجة تلك المحادثة في ١٦ يناير :

« بناء على طلب الاتحاد الاشتراكي الألماني ، فقد توقفت عملية فك ازالة ماكينات المصانع نهائيا ، اذ بعد أن أزيلت آلات الانتاج الحربى الهامة ، فلن تستمر عملية فك وازالة الآلات » .

وكما كان هذا الوعد مفرحا لنا جدا — غير أنه تأكد فيما بعد ، أنهم لم ينفذوا هذا الوعد — بدا مقلقا أيضا ، ووضح لى — ولبعض القياديين الآخرين — أن زعامة حزبنا أكدت ارتباطها الوثيق بسلطة الاحتلال أكثر وأكثر بواسطة خطاب الشكر البالغ الخنوع والخضوع .

ثم صدر بيان رسمى من « فيلهيلم بيك » وبعده بيان من « أولبريخت » ، وأخيرا خطاب شكر جماعى أيضا من جميع أعضاء اللجنة العليا للاتحاد الاشتراكي الألماني الى سلطة الاحتلال السوفيتي . قال لى أحد القياديين :

« أنا مسرور بتوقف فك آلات المصانع ، ولكن لا أدرى بالضبط ما اذا كان مفيدا لحزبنا أن يبدو راجيا ساكرا بهذه الطريقة الرخيصة » . وكان جوابى :

« أرجو أن تكون المرة الأولى والأخيرة التى نلعب فيها هذا الدور » . كانت المرة الأولى ، ولكنها لم تكن بأى حال من الأحوال المرة الأخيرة . فقد أصبحت هذه الطريقة من العادات المألوفة ، كان زعماء

« رابطة نقابات العمال الحرة » عند « سولوكوفسكى » فى نهاية يناير سنة ١٩٤٧ ، فاستجيب للرجاء مرة أخرى ، ففتح ذلك خطاب شكر ملىء بعبارات الخنوع والخضوع • ثم جاء دور « شباب ألمانيا الحر » • وأخيرا بولغ فى الشكر — حتى للتحسن البسيط فى امدادات الخضار ، اذ جاء ذلك عقب مشاورة من المشاورات — فى بيانات وخطابات الاتحاد الاشتراكى ، وظهر الارتباط — الذى كان يزداد ويقوى يوما بعد يوم — بالاتحاد السوفييتى وبسلطة الاحتلال السوفييتى فى أحداث أخرى • ففى أوائل عام ١٩٤٧ م تنازل الاتحاد الاشتراكى الألمانى عن موقفه المستقل فى مسألة الحدود الشرقية لألمانيا ، فخلفا لما أعلن رسميا قبل انتخابات المقاطعات فى أكتوبر سنة ١٩٤٦ م أعلن « فرانس داليم » بتكليف من زعامة الاتحاد الاشتراكى : « ضياع المناطق اشرقية صعب على الشعب الألمانى ، ولكن لابد للحياة من الاستمرار » (١) •

لم تنزل دعوانا ، الى اتخاذ طريق ألمانى مستقل الى الاشتراكية ، خط الحزب الرسمى ، ولكن هل ذهب كل شيء هباء بواسطة تمجيد « ستالين » وبرقيات التحية والتهانى الى الاتحاد السوفييتى ، والخضوع فى الرجاء والمشاورات وخطابات الشكر الى الادارة السوفييتية ، والتنازل عن رأى المستقل فى مسألة الحدود الشرقية ؟ ازداد شكى شيئا فشيئا ، وبعد أسابيع قليلة ، سيطر ثوران عنيف على القياديين الكبار — وليس على الكبار فقط — فقد كان حديث الساعة هو ما سمي بمؤتمر « ميونيخ » ، فقد دعا رئيس وزراء مقاطعة « بايرن » الى عقد مؤتمر لكل رؤساء وزارات المقاطعات الألمانية فى أوائل يونيو سنة ١٩٤٧ ودعى اليه أيضا رؤساء وزارات المقاطعات فى المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى •

ثم صدر الرد الرسمى من المنطقة السوفييتية عقب توجيه الدعوة مباشرة : « لا ينبغى أن يعقد المؤتمر فى « ميونيخ » بل فى برلين ، وينبغى أن يشترك فيه أيضا ممثلون عن الأحزاب والنقابات العمالية » • فرفض الجانب الغربى هذا الاقتراح ، فاختلفت الآراء فى أوساط قيادى حزب الاتحاد الاشتراكى :

(١) « فرانس داليم » فى مسألة الحدود الشرقية ، جريدة « ألمانيا

« يستوى الأمر ، أين يعقد ، ومن يحضره ؟ فالهم أن ينعقد المؤتمر ، ويجب ان يرسل ممثلونا لحضوره » . كان هذا أحد الرايين ، وكنت من بين الموافقين عليه . أما رأى الآخر فهو :

« اذا لم يوافقوا على مطالبنا ، فينبغى ألا نذهب الى هناك » .
انتظرت متشوقا اجابة زعامة الحزب ، فسررت عندما أعلن أن وفدا شرقيا سيسافر الى المؤتمر ، وهو يتكون من الدكتور « فريدريش » (زاكسين) والدكتور « هوبنر » (زاكسين — أنهالت) و « هوكير » (ميكلينبرج) ، غير أن فرحتى تنخرت عندما علمت أنه بسبب مرض رئيس وزراء مقاطعة « زاكسين » الدكتور « فريدريش » ، فقد اختير للسفر الى « ميونيخ » نائبه « كورت فيشر » ، فانى أعرف « فيشر » من أيام اقامتنا فى موسكو . وقلت لنفسى آنذاك : لو ملك « فيشر » السلطة ذات يوم فى يده ، فلا أحب أن أكون من رعاياه .

بدا لى مرض « فريدريش » فى هذا الوقت بالذات مثيرا للتكهنات ولم أؤمل فى المشتركين الآخرين — وكان اعلان حضور « فيشر » المؤتمر نوعا من الرقابة عليهم — خيرا .

فشل المؤتمر بعد يومين ، ونشر نبأ عودة كل الألمانين الى المنطقة الشرقية فى الجريدة الناطقة بلسان الحزب بالعناوين المضخمة . وظهر أن الممثلين الشرقيين سافروا الى « ميونيخ » بتعليمات صارمة ، تقضى بأن يطالبوا بأن تكون النقطة الأولى فى جدول الأعمال ، هى بحث تكوين ادارة ألمانية مركزية ، تختارها الأحزاب الديمقراطية ونقابات العمال لتكون نواة الدولة الألمانية الموحدة فرفض الممثلون الغربيون ذلك ، فانسحب ممثلو المنطقة السوفييتية فورا من المؤتمر وعادوا الى برلين . كانت حجة عودة رؤساء وزراء المقاطعات فى المنطقة السوفييتية : « أن المشرفين على المؤتمر استخدموا أزمة الشعب الألمانى الاقتصادية استخداما سيئا ليصلوا الى أهدافهم السيئة ، التى رسموها لأنفسهم ، وأريد استخدام ممثلى المنطقة الشرقية ، لخدمة هذه المجموعة من الناس ، أعداء الشعب » .

رضاعت الفرصة الكبيرة فى الوصول الى تفاهم عن طريق مؤتمر مشترك ، بضم رؤساء وزراء مقاطعات المنطقة الغربية ورؤساء وزراء مقاطعات المنطقة السوفييتية .

ذهبت فى نفس اليوم الى « منزل الوحدة » ، فقال لى أحد العاملين

هناك : « أنا لم أعد أفهم شيئاً إطلاقاً ، فقد ضاعت الفرصة الكبيرة لتوحيد ألمانيا ، ولكن « أولبريخت » سرور جداً ، سرورا من النادر أن يحدث له • ويتحدث هو وبعض القياديين عن نصر كبير ، ويظهر أنهم سرورون لفشل المؤتمر » • وتأكد هذا الظن عندي بعد دقائق قليلة ، فقد قابلت « جييتتر » الذي أعرفه من أيام لعمل في « مجموعة أولبريخت » • وكان في هذه اللحظة رئيس السكرتارية المركزية • فقال وعلامات السرور تلمع على وجهه :

« لقد وصلنا الى الهدف ، كنا محظوظين عندما سارت الأمور على هذا النحو ، ولكن كانت هناك بعض الصعوبات في سكرتارية اللجنة المركزية » •

— « صعوبات » ؟

— « أردنا في بادئ الأمر عدم السفر إطلاقاً الى المؤتمر ، ولكن ألح على السفر الديمقراطيون الاشتراكيون ، وحتى بعض رفقاتنا • وبناء على ذلك تقرر سلوك هذا الطريق : أظهرنا النية الحسنة ، ولكن في نفس الوقت لم يقيم المؤتمر على قدميه » •

لم أقل شيئاً ، فقد واصل « جييتتر » حديثه :

« تصور ماذا حدث ؟ لقد أثار « أولبريخت » في الاجتماع الى أنه تحدث مع الأصدقاء السوفييت ، وأنهم ثاروا عليه بهذه النصيحة وعند ذلك وقف أحد الديمقراطيين الاشتراكيين ، وأعلن ببساطة ساذجة أن مؤتمر « ميونيخ » مسألة ألمانية داخلية ، ولسنا بحاجة الى الأخذ بالاقتراح السوفييتي » •

هذا صحيح مائة في المائة ، هكذا قلت لنفسي ، ولكني لم أصرح به لـ « جييتتر » •

هز « جييتتر » رأسه متأسفاً :

« تصور يا « فولف جانج » أن هذا الغبي يجلس معنا في السكرتارية المركزية ! وأننا ينبغي أن نقود الحزب مع أمثال هؤلاء الناس ! » •

— « ثم ماذا حدث ؟ »

— « أخذت الأصوات » •

فقلت لنفسي : يا للأسف •• ولكني ارتعبت في نفس الوقت ، لأن معارضتي قطعت شوطاً بعيداً •

وعندما عدت من « منزل الوحدة » الى مقر عملي في مبنى الثقافة ،

فاجأني « أولسنر » بقوله :

— « سننظم دروسا ثقافية فوق العادة عن مؤتمر « ميونيخ » ويجب علينا أن نجهز كراسة خاصة فورا ، ومن الأحسن أن تبدأ فيها الآن » •
فترددت •

— « ما الخبر » ؟

— « أتعلم يا « فريد » لست متمكنا من هذه المسألة ، وبالإضافة الى ذلك فهناك — بصراحة — أشياء غير واضحة تماما » •

— « ماذا •• ماذا •• هل أنت أيضا من أولئك الذين يصابون ازاء هذه المشاكل بمغص سياسي » ؟

مغص سياسي — كان هذا تعبيراً عن أمزجة وآراء القياديين التي لا تتفق مع الخط الرسمي •

فأجبت : « مهلا •• مهلا •• وعلى أى حال فلا أحب أن أكتب هذه الكراسة مهما كانت الظروف » •

ولحسن الحظ ، لم يستمر « أولسنر » في حديثه عن المغص السياسي :
— « أنت محق يا « فولف جانج » ، فقد اشتغلت كثيرا في الأيام الأخيرة ، فارتج قليلا ، فسوف أكتب بنفسى كراسة عن مؤتمر « ميونيخ » فتنفست الصعداء ، ولكن عندما صعدت الى مكتبى ، أدركت وضعى الغريب : هل زاد الأمر عن حده ، حين ابتعدت — وأنا من العاملين في قسم الثقافة والاعلام في السكرتارية لمركزية ، والمحرر المسئول عن الكراسة الثقافية — عن الخط الحزبى : ازاء مسألة معينة ، وأننى لم أعد أستطيع الكتابة عن هذه المسألة باقتناع حقيقى ؟ •

رحلة قصيرة الى يوغسلافيا

اتصل بى قسم التدريب العسكرى تليفونيا بعد أيام قليلة من أحداث مؤتمر « ميونيخ » المحزنة :

— « يرغب المجلس المركزى للشبيبة الشعبية اليوغسلافية الاتصال بأحد القياديين الشباب ، وقد اقترحوا الاتصال بك ، وليس هناك مانع من جانبنا ، فهل توافق على السفر الى يوغسلافيا » ؟

— « طبعاً » •

كدت أطير من الفرح •

كنت قبل أسابيع قليلة في البرلمان الثماني « للشباب الألماني الحر » الذي عقد في « مايسين » ، فتعرفت هناك على مندوبين من يوغسلافيا ، قدموا إلى « الشباب الألماني الحر » هدية باسم « الشعبية الشعبية اليوغسلافية » وعبروا عن آمينتهم في أن تأخذ منظمة « الشباب الألماني الحر » مكانها كعضو كامل الحقوق في « الرابطة العالمية للشباب الديمقراطي » .

كانت « الشعبية الشعبية اليوغسلافية » منظمة الشباب الأجنبية الأولى ، التي احترمت منظمة « الشباب الألماني الحر » وأرسلت إليها مندوبين ، وقبول بيانها بتصفيق حاد . ولم يفكر أحد آنذاك أن هذه الخطبة الترحيبية التي عبر فيها عن الرغبة في قبول منظمة « الشباب الألماني الحر » في « الرابطة العالمية » ستكون سببا في توجيه اللوم إلى « الشعبية الشعبية اليوغسلافية » ، لأنها تصرف في أمور تتعلق بالرابطة العالمية دون مشاورة منظمة الشباب السوفييتية .

نشأت علاقة صداقة بينى وبين المندوبين اليوغسلافيين ، واقترحوا على في « مايسين » أن أزورهم في يوغسلافيا ، ولكنى لم أفكر طبعاً أن ذلك سيتم بهذه السرعة .

كنت أجلس — بعد ما يقرب من مضي شهر واحد على هذا اللقاء — فرحا مع قيادي يوغسلافى في عربة جميلة متجهين إلى يوغسلافيا عن طريق « دريسدين » ، و « براغ » و « براتيسلافا » و « بودابست » ، كان ذلك في آخر يوم من شهر يونيو سنة ١٩٤٧ م .

وصف كثير من الصحفيين الأجانب يوغسلافيا في ذلك الوقت — قبل الانفصال عن موسكو بسنة واحدة — بأنها أقرب البلاد شبيها بالاتحاد السوفييتى .

كان هذا الوصف صحيحا من الناحية الظاهرية ، فلم يكن التأميم قد قطع مثل هذه الخطوات في أى بلد ديمقراطى شعبى مثل ما قطعه في يوغسلافيا ، ونفذ الإصلاح الزراعى بدقة ، ولم تشكل الحياة العامة بواسطة سياسة الشيوعيين في أى مكان خارج الاتحاد السوفييتى إلا في يوغسلافيا ، فلم توجد أى أحزاب سوى الحزب الشيوعى ، ولم ير المرء في أى مكان آخر هذا العدد الكبير من الأعلام الحمراء . غير أن استنتاج المراسلين الأجانب جانب الحقيقة الجوهرية ، التي كانت ظاهرة على الأقل لصحفى أجنبى شيوعى .

وعند زيارتي الأولى للمجلس المركزي للشبيبة الشعبية اليوغسلافية في بلغراد بدأت مناقشة هادئة ، وهامة حول « الشبيبة اليوغسلافية » و « الشباب الألماني الحر » ، وحول نواحي الاتفاق والاختلاف بين كلتا المنظميتين ، فتوالت الأسئلة عن ألمانيا ، فاندثشت من كثرة معلومات هؤلاء الشبان في هذا المجال . وقلت لنفسي :

وضع مختلف عن روسيا ، فهو أوسع حرية ، وأبعد اطلاقا للعنان ، وأكثر استقلالا . زرت في الأيام التالية متحف حرب التحرير ، والمصانع ، ومدينة الجواله بالقرب من بلغراد ، وهيئات تحرير الجرائد ، والقسم الألماني في إذاعة بلغراد . كانت هناك أشياء كثيرة هامة ، ولكني لم أرسيا .

فسألت المرافق :

— « كيف الوضع عندكم ؟ فلم أر حتى الآن مكتبا واحدا للحزب الشيوعي ، والناس لا يحملون هنا المشرة الحزبية » ؟
— « ليس عندنا مكاتب حزبية كبيرة ، وليس عندنا أيضا شارة حزبية أيها الرفيق « ليونهارد » ، اذ تقوم الجبهة الشعبية بالعمل السياسي ، وأنت بالتأكيد رأيت كثيرا من مكاتبها » .
— « ولكن كيف يعلن الحزب عن نفسه » ؟

فابتسم مرافقي ، ربما لم أكن أول زائر شيوعي أجنبي يسأل هذا السؤال .

— « لماذا ؟ .. لسنا في حاجة الى شارة حزبية ، ولا الى مكاتب حزبية كبيرة ، لتثبيت السياسة المرسومة ، فكل أعضاء الحزب ، هم في نفس الوقت أعضاء في الجبهة الشعبية ، وكل أعضاء رابطة الشباب الشيوعي ، هم في نفس الوقت أعضاء في الشبيبة وهم يعلنون عن أنفسهم بواسطة أنهم يعملون بطريقة تظهرهم بأنهم أعلى النماذج وأكثر المجموعات نشاطا » .

أعجبتني طريقتهم فقلت لنفسي :

انهم أذكى بكثير من الروسيين ، ومن الاتحاد الاشتراكي الألماني .
— « اذا كانت عندك رغبة ، فتستطيع أن تسافر غدا ، لتشاهد مشروع خط سكك حديد الشباب اليوغسلافي ، فسيأتني معنا أيضا اثنان من القياديين الشبان من بلغاريا » .

سمعت كثيرا عن خط السكك الحديدية — « شاماز — ساراييفو »

اندى يقوم ببنائه الشباب اليوغسلافى • بدأ العمل فى هذه المسافة
ابتى تبلغ ٢٧٤ كيلو متر فى أول ابريل سنة ١٩٤٧ ، وفدر أن يعمل فيه
١٨٠٠٠ شاب على دفعات متعددة ، وكانت مدة عمل الفرقة هناك
شهرين •

لم يكن لبناء هذا الخط الحديدى هدف اقتصادى فقط ، بل هدف
سياسى أيضا فقد نشأ تعارف بين شباب القوميات المختلفة فى يوغسلافيا
أثناء لعمل المشترك ، واقتربوا من بعضهم ، وقد كان التعارض بين
تلك القوميات عائقا للتطور فى هذا البلد • لم يشترك فى هذا العمل شباب
من كل مناطق يوغسلافيا فقط ، بل أيضا شباب من ايطاليا ، وبولندا ،
وبلغاريا ، وبريطانيا العظمى وتشيكوسلوفاكيا ومن بلاد أخرى •
كذلك كانت مجموعتنا عالمية ، فقد كانت تتكون من اثنين من بلغاريا ،
واثنين من ايطاليا ، ويونانى ، وانجليزى ، وكانوا يتجهون كلهم الى خط
الشباب الحديدى كلما اقتربنا من الهدف المتجهين اليه — وهو مدينة :
« زينيسا » عاصمة خط الشباب الحديدى — كلما رأينا مجموعات أكبر
من الشباب ، يشتغلون فى بناء الخط وتركيب انقضبان • وكانت الحواجز
الخشبية مزينة بالورود والأعلام المصنوعة من الورق الملون ، والشعارات •
وصلنا • • هاهى ذى « زينيسا » • • سرت مندهشا عبر هذه
المدينة الفريدة من نوعها ، حيث يتزاحم فيها القديم والجديد ، والماضى
والمستقبل • معظم سكانها من المسلمين ، فيلبس الرجال عمامة حمراء ،
وترتدى النساء حجابا أسود ، وملابس بيضاء وزرقاء أو سمراء طويلة
حتى القدمين • ثم علمت بعد أيام قليلة أن اختيار الألوان ليس
عشوائيا ، اذ هى تبين عمر المرأة •

تعود السكان المسلمون على رؤية العاملين فى بناء الخط الحديدى ،
فلم يعد يتطلع الرجال ذوو العمائم الحمراء ، والنساء ذوات الحجاب ،
اذا مرت عليهم عربات الجيب الأمريكية الصنع ، أو سيارات النقل
المزركشة بأعلام « الشبيبة الشعبية » المثلثة الحمراء ، حاملة الشباب
وهو يغنى الى مقر عملهم •

كان مقر الرئاسة المركزية فى منزل جديد ، ويدور العمل فيها ليلا
ونهارا ، لأن كل مناطق العمل على اتصال دائم بها ، فهى تمسك بكل
الخيوط المتصلة بالعمل فى بناء الخط الحديدى •

يصل يوميا فرق شباب ، ووفود ، وصحفيون من كل بلاد العالم

تقريبا ، ويسمع المرء هناك لغات مختلفة ، الانجليزية ، والصربية ،
والتشيكية ، والمجرية ، والفرنسية ، واليونانية ، والألمانية ، والعربية ،
والعبرية ، ف بجانب الشباب الأوروبي والأمريكي والاسترالي ، كان هناك
أيضا الشباب العربي واليهودي الذين جاءوا من فلسطين وللتأكيد على
معنى « الأخوة » و « الوحدة » فقد كونوا منهم فرقة واحدة ، وساد
التفاهم بينهم بطريقة ممتازة •

دولة واحدة فقط هي التي لم تمثل : الاتحاد السوفييتي •
فسألت أحد أعضاء اللجنة القيادية : « لماذا لا يوجد هنا شباب
سوفييتي » ؟

فأجاب : « ان الشباب السوفييتي مشغول ببناء بلده » •
لم تكن حجة مقنعة ! ألم يكن في الامكان ارسال بضعة عشرات من
الـ ١٠ مليون شاب الأعضاء في منظمة الشباب السوفييتية ؟ من المؤكد أن
هناك أسبابا أخرى ، ولم يكن من الصعب الكشف عنها •

أصبح واضحا لي بعد أيام قليلة أن الحماس والاعجاب هنا في
عام ١٩٤٧ م أكثر أصالة ، وأقوى ، والحرية أكثر ، والمناقشة أكثر بعدا
عن النموذج المصبوب ، و حياة الشباب كلها أقل قيودا مما في الاتحاد
السوفييتي • فماذا يمكن أن يقول عضو منظمة الشباب السوفييتية ،
إذا أقام هنا شهرين ؟

من الجائز أن يكون هذا هو السبب الحقيقي •••
تكرر في المحاضرات السياسية ثلاث كلمات وهي : « بعد الاتحاد
السوفييتي » ، فكلما تحدث اليوغسلافيون في ذلك الوقت عن نجاحهم ،
وضعوا هذه الكلمات الثلاث ، ليؤكدوا أنهم لا يفرقون اطلاقا في مقارنة
وضعهم بالاتحاد السوفييتي •

دار حديث في طريق العودة الى بلغراد بيني وبين شباب يوغسلافي ،
فسألتني فتاة يوغسلافية ، والاهتمام يبدو في عينيها : « أنت كنت في
الاتحاد السوفييتي ؟ لابد أن يكون هناك أشياء مذهشة » !

فقلت لها بلهجة الواثق : « عندكم في يوغسلافيا أحسن » •
فنظر الشباب الى مندهشين •

— « لقد رأيت وشاهدت في يوغسلافيا في أسبوعين أشياء هي في
نظري أحسن مما في الاتحاد السوفييتي » •

حاولت أن أدلل لهم على ذلك بالأمثلة ، ولكنهم هزوا الرؤوس فقط •

— « لا .. لا أعتقد ذلك ، نحن مناخرون جدا عن الاتحاد السوفييتى » قامت فتاة يوغسلافية ذلك ، ووافقتها الآخرون على هذا الرأى •

ربما فهموا موقفى فهما صحيحا فيما بعد •
الدقيقت فى « بلغراد » لقاء أخيرا مع كبار قادة « الشيوعية الشعبية اليوغسلافية » •

— « نحن مسرورون جدا على زيارتك لنا ، وعلى أننا وطدنا الاتصال الشخصى ، مع « الشباب الالماني الحر » • الذى من المؤكد أنه لن ينفصل بعد اليوم • لقد رسمنا خطة إقامة مشروع كبير فى العام القادم ، ونريد أن ندعو أيضا فرقة من « الشباب الالماني الحر » للاشتراك فى هذا العمل » •

— « متى سيكون ذلك تقريبا ؟ »
— « لا نستطيع أن نقول الآن الموعد بالضبط ، ربما فى يونيو أو فى يوليو سنة ١٩٤٨ » •

وقبل أن أعود الى برلين بيوم واحد ، قابلت فى المساء قياديا حزبيا كبيرا ، كان محرر جريدة « بوربا » أثناء حرب التحرير ، وهو من أعضاء اللجنة المركزية للحزب • كان يتحدث الألمانية بطلاقة ، وعاش فى ألمانيا ، ولهذا فهو يعرف الظروف الألمانية ، ويعرف أيضا كثيرا من القياديين فى الاتحاد الاشتراكى الالماني •

سألته عددا من الأسئلة عن يوغسلافيا ، التى لم يجبنى أحد عليها ، وسرعان ما غرقنا فى مناقشة ، وفجأة وجه الى هذا السؤال :

— « قل لى .. ما الذى لم يعجبك هنا ؟ فاننا سنهتم جدا بمعرفة انطباعات الرفقاء الأجانب ، وخاصة نواحى النقد ، التى ينتقدونها فيها » •
— « يوجد شئ واحد عندكم ، لا يعجبنى ، وأرى أنه غير صحيح » •

— « ماذا ؟ ونظر الى باهتمام •
— « سمعت هنا محاضرات سياسية كثيرة ، كذلك ترجمت لى بعض الخطب الهامة والمقالات الصحفية ، فلاحظت أنكم تكرر القول بأنكم متخلفون جدا عن الاتحاد السوفييتى • لقد عشت عشر سنوات فى الاتحاد السوفييتى ، ومن هنا فلدى بعض امكانيات المقارنة • لا أوافقكم على هذا الرأى ، فالقياديون فى حزبكم أوسع ثقافة ، وأكثر تعليما فى النواحى السياسية من زملائهم فى الاتحاد السوفييتى ، وشبابكم أكثر

حماسا واهتماما من أعضاء منظمة الشباب السوفييتية • نعم • ليس لحزبكم مبانى ضخمة ، ولكن له في مقابل ذلك تأثير كبير في الشعب ، وأنا مقتنع بأنكم تسلكون طريقا أحسن من طريق الاتحاد السوفييتي • وصلت الى النقطة الحساسة ، وألقيت كل ما كان عندي ، فتنفست بارتياح • نظر القيادي الى نظرة جد وتفكير ، ثم قال :

« من الأحسن ألا نتحدث في هذا الموضوع » •

كنت مضطرا — للأسف — أن أسافر في صباح اليوم التالي عائدا الى برلين ، الى عملى في قسم الثقافة في السكرتارية المركزية للاتحاد الاشتراكي الألماني •

بعثت الرحلة الى يوغسلافيا في صيف ١٩٤٧ في قوة جديدة ونشاطا جديدا ، ولكنها في نفس الوقت زادت في ترددى تجاه « المثال السوفييتي » •



مؤتمر الحزب الثانى

زرت بعد عودتى من يوغسلافيا صديقى « ميشا فولف » الذى أعرفه من مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، وهو معروف الآن باسم « ميخائيل شتورم » ويعمل معلقا في قسم السياسة الخارجية في اذاعة برلين الشرقية ، غير أن الأهم من هذا هو عمله كمراقب مسئول عن البرامج السياسية الهامة •

يسكن « ميشا » — الذى له علاقة وثيقة بالمراكز السوفييتية العليا في شقة « لوكس » من ٥ حجرات ، في شارع « بايرن » قريبة من مبنى الاذاعة في برلين الغربية •

تزوج « أيمى شتينسر » تلك الفتاة الشقراء ذات العيون الزرقاء ، التى كانت بارعة في تكوين المجالس الشعبية على الورق في مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، والتى نقلت كلامى الى قيادة المدرسة ، حيث تسبب ذلك في ممارستى عملية انقذ الذاتى الأولى •

— « رائع جدا أن حضرت في هذه الساعة ، فستطيع أن تسافر معنا حالا الى منزلنا الريفى » •

توقفنا بعد ساعة أمام « فيلا » جميلة بالقرب من بحيرة « جلينيك » كانت هذه « الفيلا » ملكا لـ « ميشا فولف » الذى يبلغ من العمر ٢٥ عاما • وفى احدى مرات تجوالنا على شاطئ البحيرة قال « ميشا »

ببساطة : « في الحقيقة ، يجب عليكم في هذا الوقت أن تتنازلوا عن نظريتكم في اتخاذ طريق ألماني مستقل الى الاشتراكية ، « فالخط » سيتغير قريباً » .

فضحكت ، ثم قلت له :

— « يا « ميشا » .. وضعك وعبقريتك في الاعتبار ، ولكني أعرف أحسن عن الخط السياسي ، فأنا أعمل في السكرتارية المركزية ، وأكتب الكراسات الثقافية ، التي هي المقياس لكل أعضاء وقياديين الحزب كله » .
أشعل « ميشا » لنفسه سيجارة ، وقال ضاحكاً بسخرية :

— « توجد مراكز أعلى من سكرتارياتكم المركزية » .

يبدو أنه سر من التلغظ بكلمة « سكرتارياتكم المركزية » .

— « ولكن يا « ميشا » .. دعوى اتخاذ طريق ألماني مستقل الى الاشتراكية تحتوي في أساسها على أهداف الاتحاد الاشتراكي الألماني وتؤكدها » .

لم يتأثر « ميشا » بأسس وأهداف الاتحاد الاشتراكي الألماني أدنى تأثر .

— « أذن .. يجب تغييرها » .

نظرت اليه مندهشاً !

— « فولف جانج » .. أنا لا أقول ان ذلك لا بد أن يحدث غدا ، فلا أريد سوى تنبيهك في الوقت المناسب على بعض المتغيرات فقد تحدثنا حول هذا الموضوع مع « تولبانوف » فقال — طبعاً كان ذلك في محيط ضيق جداً — : ستختفى قريباً نظرية اتخاذ طريق ألماني مستقل الى الاشتراكية . فلو كنت مكانك لتوقفت عن الكلام والكتابة في هذا الموضوع ، فسيخفف ذلك من تحولي في المستقبل » .

قال ذلك ببساطة ، دون أن يدرك أن هذا الرأي يحطم آمالاً كبيرة عندي ، أما بالنسبة له فبدأ أنه وسيلة فقط للوصول الى الهدف .

من تذكرت آنذاك ؟ عرفت : كان « ميشا » من نفس طراز الضابط السوفييتي الكبير ، الذي تحدث بنغمة بطيئة ، عن المخرج من انتخابات ٢٠ أكتوبر . كان طراز القيادي الذكي الهادي الذي يقف في الخلف يرقب كل ما يفكر فيه الرفقاء الآخرون تفكيراً جدياً ، ويرقب ما يسعون لتحقيقه ولأى شيء يتحمسون . كان « ميشا » ألمانيا ، ولكن انتماءه الى الجنسية الألمانية لا يلعب دوراً في هذا المجال . كانت له نفس النغمة ؛

ونفس الطريقة في شعال السيجارة لنفسه ، ونفس الضحكة الساخرة. الخفيفة على القياديين المتحمسين ، ونفس الجدية في الدفاع عن الشعارات والتعليمات الجديدة . مثل الضابط السوفييتي ، الذي زرته في نهاية أكتوبر سنة ١٩٤٦ م .

ظهر أن « القياديين الواقفين في الخلف » لا يتحمسون لشيء ، ويبدو من ظاهرهم أنهم لا يتخلون أيضا عن هدوئهم . فقد حصروا أنفسهم في دراسة الخطوة الجديدة بحذر واحتراس ، ثم يعطون توجيهاتهم للقياديين الكبار ، الذين يتحدثون في المؤتمرات الكبيرة في العالم ، والذين يبحثون بهذا عن المتحمسين ، ويكتبون المقالات الحماسية .

تقرر أن يبدأ مؤتمر الحزب الثاني للاتحاد الاشتراكي الألماني بعد أيام قليلة فإذا كان « ميشا » على حق ، فسوف تقل زعامة الحزب من الكلام عن الطريق الألماني المستقل إلى الاشتراكية ، وتكثر من الحديث عن الارتباط بالاتحاد السوفييتي عن ذي قبل .

جلست في دار الأوبرا الألمانية في ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٤٧ م مشدود الأعصاب ، متشوقا إلى ما سيقال في هذا المؤتمر .

افتتح المؤتمر الثاني للاتحاد الاشتراكي بعزف قطعة « بيتهوفن » الموسيقية : « تدشين المنزل » ، وبعد الانتهاء منها ، انتظرت — متلهفا — خطب زعماء القمة ، فسوف يلقي « فيلهيلم بيك » التقرير السياسي ، و « إيريش ف . جنيفكي » بيانا عن المنظمات ، وسيتحدث « أوتو جروتيفول » عن مشاكل الوحدة الألمانية ، و « فالتر أولبريخت » عن النهضة الاقتصادية ، وتشبيد الدولة في المنطقة الألمانية ، الواقعة تحت الاحتلال السوفييتي .

لم تلغ رسميا — أثناء أيام مؤتمر الحزب الخمسة — نظرية الطريق الألماني المستقل إلى الاشتراكية ، ولكن أظهر التركيز المستمر على « انجازات الاتحاد السوفييتي الرائعة » الانعطاف الذي أقلقني ، وأصبح تبريره ثقيلًا على باستمرار . حاول « ماكس فيشنر » في خطابه الافتتاحي ايجاد أسلوب وسط بين عمل مشترك ، أشد التزاما مع الاتحاد السوفييتي وبين السياسة المستقلة : « لا يدل اقرار العمل المشترك مع الاتحاد السوفييتي في النواحي الاقتصادية والثقافية ، على

الانتخلى عن ممارسة سياسة مستقلة ، ولا تشير ممارستنا سياسة ألمانية ،
انى أننا نعادى الاتحاد السوفييتى » •

وذهب « أوتو جروتيفول » الى أبعد من هذا : « • • تتمتع قوة
النظام الديمقراطي الجديد ، الذى قام فى شرق وجنوب أوروبا ، وكذلك
أبضا فى المنطقة التى يحتلها السوفييت ، بمساندة الاتحاد السوفييتى » •
لاحظت فى اليوم التالى مباشرة مغزى هذا التفسير بالنسبة للتطبيق
السياسى ، فقد اتخذ « فيلهيلم بيك » فى تقريره السياسى الكبير موقفا
من مشكلة ، طالما أزعجتنا جميعا آنذاك ، ألا وهى : فك آلات المصانع •
ففى أوائل عام ١٩٤٧ م أكد المارشال « سوكلوفسكى » لزعماء
حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، أن هذه العملية توقفت ، فهال
لهذا القرار فى المؤتمرات ، واعتبر نصرا ، ونجاحا للاتحاد الاشتراكى ،
فقدموا الشكر الخنوع الى الادارة العسكرية السوفييتية على هذا الكرم
البالغ !

ولكن بعد هذا ، — أى بعد أسابيع قليلة — استؤنفت عملية فك
آلات المصانع ، فكان هذا نقضا سافرا للوعد • علت أصوات فى الحزب
تطالب باستتكار اجراءات فك المصانع ، ولو بصيغة مؤدبة ومقتضبة •
لم يسمح لنا بذلك ، ووجد كل القياديين — الذين كان من واجبهم
التحدث فى المصانع ، أو فى الاجتماعات العامة — أنفسهم فى موقف حرج •
تحتّم على « بيك » فى مؤتمر الحزب الثانى أن يبرز نقض رجال
السلطات السوفييتية للوعد الذى قطعوه على أنفسهم أمام الاتحاد
الاشتراكى بوقف عملية فك المصانع :

« لقد قام المجلس الأعلى للحزب بتقديم الشكر على وعد الادارة
العسكرية السوفييتية الكريم ، واعتبره دليل ثقة فى الشعب الألمانى » •
ورغم هذا فقد انتشرت فى الأيام الأخيرة أخبار عن فك خطوط
السكك الحديدية مما سيسبب مشاكل كبيرة لشئون النقل والمواصلات ،
وقد طالبنا هنا أيضا بحصر هذه العملية فى أضيق الحدود ، فبين المارشال
« سوكلوفسكى » أن الماكينات التى تحل الآن من مجموعة عديدة من
شركات المناجم ، ليست استثناءا للعمل الذى أعلن عن وقفه فى السابق ،
بل تكميلا لفك منشآت المناجم ، التى تركت مؤقتا عند تنفيذ عملية فك
سابقة • • • » •

خيم صمت مطبق عند سماع هذه الكلمات ، اذ كان كل الحاضرين

يعلمون أن شرح « بيت » لا يطابق الحقيقة ، لأن عملية الفك كانت قد استؤنفت على نطاق واسع في ذلك الوقت •

أوضح لى هذا التفسير من جديد ، قوة ارتباطنا في كل المشاكل السياسية الراهنة بتعليمات وقرارات الإدارة العسكرية السوفييتية ، وأعلن الآن — على خلاف ما كان في عامى ٤٥ — ١٩٤٦ م — عن الارتباط الوثيق بالاتحاد السوفييتى •

كان الوقت هو مساء اليوم الثالث في المؤتمر ، وقف « هيرمان ماتيرن » عند منصة الرئاسة ، وصاح في الصالة : « الآن لى الشرف الكبير فى أن أذيع من بين الرسائل العالمية الكثيرة الى المؤتمر الرسائل الهامة جدا » •

ثم قرأ الرسالة السوفييتية التى وقع عليها « سوسلوف » سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى ، فاتجهت كل الأنظار الى « اللوج » الذى كان يجلس فيه « سوسلوف » كضيف فى المؤتمر ، وعند ذلك وقف « سوسلوف » وصاح باللغة الألمانية : « عاش الاتحاد الاشتراكى الألمانى » ! وبعد أن هدأ التصفيق لهذه التحية ، صاح « ماتيرن » فى الصالة من على منصة الرئاسة : « عاش الحزب الشيوعى السوفييتى • عاشت لجنته المركزية • عاش زعيمه « ستالين » •

تغير الاتحاد الاشتراكى الألمانى كثيرا فى عام ونصف ، أى منذ مؤتمر الوحدة ، فقد كان مثل هذا الهتاف مستحيلا فى مؤتمر الوحدة • كنت فى يوم الأحد بعد المؤتمر راكبا فى عربة مع قيادى كبير فى المنطقة السوفييتية فسنحت الفرصة لحديث بيننا ، وقررت ألا أتركها تمر دون استغلالها :

— « يقال — وأنت تعلم بالتأكيد أحسن منى — أن عملية فك الآلات قائمة على قدم وساق • لقد أجريت المشاورات حول توقف هذه العملية باسم الحزب ، ولاقت تأييدا شعبيا كبيرا • لا نستطيع أن نتصور مغزى هذا بالنسبة لى الآن • فهل سدت كل الطرق حقيقة للوصول الى وقف عملية فك الآلات ؟ أو ليس فى امكان الحزب — على الأقل — التبرؤ منها رسميا ؟ »

نظر القيادى الكبير الى بهدوء ثم قال : « لا • • ليس فى الامكان هذا ؟ »

— « ولكن • • ما هو رأيك الشخصى » ؟

أخذ نفسا عميقا ، فكان أشبه بالتأوه ، ثم أخرج الكلمات بصورة متقطعة وبصوت منخفض :

— « هم لا يعملون لنا أى حساب » •

وكان المقصود بضمير « هم » الزعامة السوفييتية • ولكن ، انتصر — أيضا فى هذا الحديث المحصور بيننا نحن الاثنين — الالتزام الذاتى ، الذى حقن به كل قيادى عن طريق التثقيف ، والعمل سنين طويلة فى أجهزة الحزب :

— « من الأحسن ألا نتحدث فى هذا الموضوع » •

لكننا عدنا بعد ربع ساعة الى « الحديث الساخن » مرة أخرى : تصرف الجنود السوفييت ومنع الاتحاد الاشتراكى الألمانى من الكلام فى هذا الموضوع ، ومن أن يتخذ منه موقفا • حاولت الكلام معه من جديد :

— « أستطيع فهم هذه الأشياء كلها ، ففى كل احتلال يحدث مثل هذا ، وخاصة مع التكوين الحالى لقوات الاحتلال السوفييتية فى ألمانيا ، فقد سقط فى الميدان أحسن المدربين فى عام ١٩٤١ م ، وينحدر معظم الجنود الموجودين الآن من قرى نائية ، فلم يأخذوا قسما كبيرا من التربية ، ولكن يمكن أن نتحدث عن هذه الأشياء بوضوح ، وأن نحاول بيانها ونقددها ، فننتفادى بذلك ضياع هيئة حزبنا • فلو لم نتحدث عن هذا الموضوع ، فسيرتكب ذلك آخرون ، وستستخدم هذه الوقائع لتحريض وطنى عام » •

هز القيادى رأسه ، وظهر أنه يوافقتى فى هذا رأى ، ولكنه لم يقل شيئا •

— « كنت فى العام والنصف الماضيين ، مرات عديدة فى موسكو ، ألم تحدث — على الأقل — محاولة لاثارة هذه المشكلة » ؟

— « نعم •• قمنا بمحاولة مع « ستالين » •

ثم صمت مرة أخرى ، ولكنى لم أتركه :

— « والى أى شىء توصلتم » ؟

— « أجاب « ستالين » بمثل روسى قديم : « يوجد خروف أسود فى كل أسرة » • ولم يقل شيئا أكثر من هذا ، ثم عندما بدأ واحد منا فى شرح المسألة ، واستنباط ما يترتب عليها من عواقب ، قاطعه « ستالين »

قائلا : « أنا لا أتحمل أحدا يسيء الى الجيش الأحمر » وبهذا انتهى الحديث •

لم أفتح حديثا في موضوع آخر من المواضيع الحساسة ، ولكنى أدركت في هذا اليوم — يوم الأحد — من سبتمبر سنة ١٩٤٧ م أننا ربطنا بالاتحاد السوفييتي بسلسلة ربطا محكما •

معهد الحزب العالي « كارل ماركس »

من الأمور العادية في الجهاز الستاليني ، أن القيادي في زعامة الحزب بمكث في وظيفته مدة تتراوح بين عام ونصف ، وثلاثة أعوام فقط ، ثم ينتقل الى مركز آخر • وأنا أعلم منذ عامين في جمع المواد الثقافية وتأليف كرايسها ، والقاء محاضرات في المعهد العالي للحزب ، وفي مدارس الاتحاد الاشتراكي الألماني في المحافظات ، وفي المدرسة المركزية لمنظمة « الشباب الألماني الحر » — وكان مقرها في « الفيللا » التي كان يسكن فيها « جوبلز » عند بحيرة « بوجين » — •

وعندما استدعيت في سبتمبر سنة ١٩٤٧ م لمقابلة رئيسي المباشر « أنتون آكارمان » ومقابلة رئيس قسم التدريب في الاتحاد الاشتراكي الألماني ، أدركت أنني سأكلف بعمل جديد • تشابه قول كليهما :

— « تهتم زعامة الحزب اهتماما كبيرا بتوسيع العمل في المعهد العالي للحزب ، معهد « كارل ماركس » ، ولهذا أقترح تدعيم هيئة التدريس ، بأن تعمل لمدة سنتين تقريبا في المعهد ، وتستطيع أن تختار القسم الذي تحب أن تعمل فيه ، موافق ؟ » — « موافق » •

سررت بهذا الاقتراح ، فمن الآن — هكذا قلت لنفسي — لم أعد مجبرا على الدعاية للقرارات السياسية ، والاجراءات ، التي يتخذها الاتحاد الاشتراكي الألماني ، بل سوف أتمكن من الابتعاد قليلا عن السياسة المرسومة ، وأشغل نفسي — في هدوء — بالمشاكل النظرية • كان المعهد العالي للحزب آنذاك في « ليبينفالد » على بعد ٣٥ كيلومترا تقريبا شمال برلين • ذكرني المبنى بمدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية في « كوشنارينكوفو » • استقبلني « رودولف لينداو »

مدير المعهد آنذاك ، وكنت قد تعرفت عليه في موسكو باسمه الحركي .
« باول جريتش » ، فهو من الذين لا زالوا على قيد الحياة من المحاربين
المقدامي : كان عضوا في لجنة تأسيس رابطة « سبارتاكوس » في عام
١٩١٦ م ، ومن مؤسسي الحزب الشيوعي الألماني . كان مشغولا في
أيام نفيه في الاتحاد السوفييتي بكتابة تاريخ الحزب الشيوعي الألماني .
حياني « رودولف لينداو » بحرارة ، وشرح لي طبيعة العمل في
المعهد العالي للحزب : « عندنا الآن دورات دراسية ، مدة الواحدة ستة
شهور ، ولكننا سنبدأ من الآن أول دورة دراسية تستغرق سنتين ،
وستستمر بجانبها أيضا دورة النصف سنة ، ولكن بأسلوب آخر » .
— « كنوع مختصر لدورة السنتين » ؟

— « لا .. هناك فرق هام : نقبل في دورة السنتين ، رفقاء شبان
ذى قدرة على التطور ، انضموا للحزب بعد عام ١٩٤٥ م ، وأتموا
دراستهم في مدارس المراكز ، ومدارس المحافظات ، ونهيئهم للمراكز
أساسية ، ليقوموا بأعمال ذات مسئولية في الحزب . أما دورة النصف
سنة ، فهي على العكس من ذلك ، اذ يقبل فيها في المقام الأول ، رفقاء
كبار السن ، كانوا عاملين في الحزب الشيوعي ، والحزب الديمقراطي
الاشتراكي قبل عام ١٩٣٣ م ، لنهيئهم لتقبل الواجبات والمعارف السياسية
الجديدة ، ونرفعهم بذلك درجة أعلى في الحزب ، ويجب أن نهتم
بصفة خاصة بالرفقاء من غرب ألمانيا » .
— « من غرب ألمانيا » ؟

— « نعم .. فربع المشتركين تقريبا في الدراسة ، سواء في دورة
السنتين ، أو في دورة النصف سنة ، هم أعضاء في الحزب الشيوعي
الألماني من غرب ألمانيا . تكفلنا بتثقيفهم . ومن المفهوم طبعاً أنهم
يدرسون هنا بأسماء مستعارة ، ونفس الوضع بالنسبة للرفقاء
النرويجيين ، الذين تكفل حزبنا بتثقيفهم ، لأن الحزب في النرويج ليس
عنده سوى المدارس الأسبوعية » .

أطلعني « رودولف لينداو » على المكتبة الغنية بالمراجع ، ثم قادني
إلى « قسم وسائل التدريس » حيث كان بعض العاملين منهمكين في
ذلك الوقت في طبع المادة الدراسية .
فشرح لي :

— « هنا تطبع كل المواد الدراسية عندنا ، فيحصل كل دارس قبل ..

كل محاضرة على برنامج مختصر لها ، مبين فيه قائمة مراجع الموضوع الذى ستعالجه ، وبعد الانتهاء من المحاضرة يحصلون على نسخ تدور حول هذا الموضوع ، ويستطيعون أن يذهبوا الى صالة المطالعة أو الى حجراتهم ، ويستذكرون المحاضرة وحدهم ، وفى اليوم التالى — وأحيانا تمتد المدة ، حسب الموضوع — تعقد قاعة بحث لمدة ثلاث ساعات للمناقشة • ويعقد امتحان تحريرى كل ثلاثة أشهر ، وبعد كل فصل دراسى يعقد امتحان شفوى وتحريرى فى كل مادة » •

أطلعنى العاملون على بعض المطبوعات ، فرأيت هذه الملاحظة مكتوبة على الصفحة الأولى من كل نسخة :

« للاستعمال الدراسى الداخلى فقط »

وكتب فى آخر النص أسماء القبايين المسؤولين عن اختيار المادة والتصحيح اللغوى وتحرير النص • وبهذه الطريقة يمكن معرفة المسئول عن الخطأ السياسى •

لم يكن من النادر أن تأخذ المواد الدراسية ، والمصادر ، والنصوص التى تتعلق بمحاضرة واحدة عشرات الصفحات ، المكتوبة على الآلة الكاتبة ، على مساحة ضيقة بين السطور • وعلى العكس من ذلك فى برنامج المحاضرة ، اذ يقتصر فيه على اشارات وتلميحات للموضوع فقط •

وهذا مثال لبرنامج محاضرة المعهد العالى لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى :

للاستعمال الداخلى فقط

f. 1. 43 - D - 1 - 9 - 4 - 8

فلسفة ، برنامج المحاضرة :

الجدلية والمنطق الشكلى •

أهمية موضوع ادراك جوهر التناقض الجدلى والنظرية الجدلية •
الاشارات الكلاسيكية فى هذا الموضوع : « انجلز » ، عن المنطق الشكلى كجزء من الفلسفة • « لينين » ، عن ضيق المنطق الشكلى وعن جوهر الجدلية ، المنطق ونظرية المعرفة •

بأى التأويلات يكون المنطق الشكلى مسوغا وضروريا ؟ الفرق بين التناقض الجدلى واللامعقول •

أنواع مختلفة للتناقض الجدلى (جوانب متعددة ، اتجاهات ، قوى فى الظواهر الطبيعية ، مراحل ، حركات ، عدم الدوام ، التناقض بين جوهرين) • الشيخ •

التناقض فى ضوء علم الطبيعة الحديث (تركيب الذرة ، الطبيعة المزدوجة من النور والمادة) •

عدم وفاء القانون المنطقى بالغرض ، كوسيلة لتوضيح الحقيقة • الأهمية العملية للعلاقة بين الجدلية ، والمنطق الشكلى (وحدة فى الجوانب المتعددة ، والخواص المزيّنة ، وقابلية التحرك ، والكلية مع البقيين ، والوضوح ، والعمق فى الجدلية) •

المسئول « فكتور شتين » •

المراجع « هانز — يواخيم مينكى » •

قدمنى « رودولف لينداو » فى اليوم التالى لرؤساء الأقسام الأربعة فى المعهد العالى للحزب •

كان يتولى رئاسة قسم التاريخ « ايريش باتيرنا » الذى اشتغلت معه فى خريف عام ١٩٤٥ م فى قسم الدعاية السياسية فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى ، وكان مسئولا آنذاك عن شؤون التعليم •

كان « ايريش باتيرنا » — وهو من المدافعين المتحمسين عن اصلاح التعليم — عضوا فى الحزب الديمقراطى الاشتراكى فى عهد الجمهورية الفاييمرية ، ولكنه انضم الى الحزب الشيوعى فى عام ١٩٣١ م • قضى سنوات عديدة مسجونا فى ليتمان « براندينبرج » أثناء العهد النازى ، وأخيرا أتيحت له الفرصة لتحقيق أهدافه التربوية ، وهو يعمل بحماس شديد لا يعرف الكلال فى تاريخ الحركة العمالية الألمانية ، وفى التأملات الماركسية فى التاريخ العام ، فقد كان طارزا للبحث العالم الثورى •

فرحت أيضا بلقاء « فريدا روبينر » التى تشرف على قسم « أسس الماركسية اللينينية » مرة أخرى ، فقد تعرفت عليها فى الاتحاد النسوفييتى ، عندما كانت تعمل فى القسم السابع فى الادارة السياسية الرئيسية فى الجيش الأحمر • وهى تحاول الآن اقناعى بالعمل معها فى القسم ، اذ قالت لى بوضوح :

— « أنا أحتاج الى ثقل ضد الديمقراطيين الاشتراكيين » •
 عرفت « فيكتور شتيرن » أيضا من موسكو • لعب « شتيرن »
 في العشرينات دورا كبيرا في الحزب الشيكوسلوفاكى ، وكان عضوا في
 البرلمان التشيكوسلوفاكى • وعندما كنت أتردد عليه في منزله
 زائرا في عام ١٩٤١ م — كان من القياديين القلائل ، الذين لم يقيموا
 في فندق « لوكس » — لم يكن واضحا ، في أى بلد سيستأنف نشاطه
 بعد الانتصار على « هتلر » وكيفما كان الأمر ، فلم يرسل الى
 تشيكوسلوفاكيا بل انى ألمانيا ، مرفوعا الى وظيفة أستاذ •
 ألف كتابا عن المادية الجدلية (١) ، وفيما بعد كتابا آخر عن
 « ستالين كفيلسوف » وهو رئيس قسم الفلسفة في المعهد العالى
 للحزب •

لم أكن أعرف « ألفريد ليميتس » رئيس قسم الاقتصاد السياسى
 من قبل • فقد قضى عهد النازية مسجونا في ألمانيا •
 كان رؤساء الأقسام الأربعة من الحزب الشيوعى • كان المعهد
 العالى للحزب هو أحد المؤسسات القليلة ، التى لم يوجد فيها آنذاك
 مساواة بين أعضاء الحزب الديمقراطى الاشتراكى السابق ، وأعضاء
 الحزب الشيوعى السابق • وكان أقل شئ للتدليل على « المساواة
 الرمزية » هو نائب عميد المعهد ، فقد عين في هذا المنصب ديمقراطى
 اشتراكى ، هو « باول لينسر » ، وكان يعمل سابقا في القسم الثقافى ،
 في الحزب الديمقراطى الاشتراكى سنين عديدة ، ولكنه لم يكن طبعاً
 قوة أمام سيطرة أعضاء الحزب الشيوعى في المعهد العالى للحزب ، فاضطر
 الى أن يحصر عمله في القاء محاضرة بين الحين والآخر ، وفي تنظيم
 الحفلات الثقافية في المعهد •

قابلت أيضا « فالتر كوبى » — وهو من « مجموعة أولبريخت » —
 وكان قد نقل من العمل السياسى الى وظيفة مشرف خدمات في المعهد
 العالى للحزب • وهو يشعر هنا بالارتياح ، غير أنه كان يحب أن يخاطب
 دائما بلفظ « أيها الرفيق المدير » ! كما كان الحال في وظيفته السابقة •
 قررت بعد تفكير أن أعمل في قسم التاريخ ، فتعرفت على أسلوب
 عمل « أعلى طبقات الحزب » •

(١) صودر هذا الكتاب فيما بعد ، وسحب من السوق •

لاحظت في الأيام الأولى نواحي الاختلاف في المعهد عن مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، فقد كانت تجهيزات المعهد العالي لحزب الاتحاد الاشتراكي الألماني في « ليبينفالد » في عام ١٩٤٧ م نموذجية ، حتى أحسن منها في مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية في عامي ٤٢ — ١٩٤٣ م .

كانت كميات الطعام — رغم أننا كنا في عصر نعاني فيه من نقص المواد الغذائية — كبيرة . ويأخذ كل الدارسين في المعهد مصاريف جيب ، وتستمر الأسرة في صرف مرتب أو أجر عائلا الذي سحب من عمله ليدرس في المعهد (١) .

لم يكن النظام آنذاك — في خريف عام ١٩٤٧ م — شديدا مثل ما كان في مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، فقد كان مسموحا للدارسين بكتابة الخطابات ، وبالسفر في نهاية الأسبوع الى برلين . كذلك كان مسموحا لهم أثناء الأسبوع بمغادرة حرم المعهد . نعم . . كان هناك « نقد ، ونقد ذاتي » ، ولكنه لم يكن شيئا بالنسبة لما شاهدته في مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية .

كذلك لم تكن قاعات البحث صعبة ، نعم . . انتقدت فيها أيضا بشدة الآراء « الخاطئة » والتعبيرات « الخاطئة » ، ولكن لم يؤد ذلك آنذاك إلى الطرد من المدرسة أو من الحزب .

كنت أرى أن هذا المعهد — بالمقارنة مع مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية — حر تقريبا ، أما الدارسون الذين لم يكن لديهم امكانية هذه المقارنة ، ولم يكن عندهم أى فكرة عن وضع المعهد العالي للحزب في بعض السنين ، فقد كان لهم رأى آخر ، تذمر أحد أعضاء الحزب الديمقراطي الاشتراكي السابق قائلا : « أنا أشعر هنا ، كما لو كنت في سجن » . وحكى لى عن مدارس التثقيف في الحزب الديمقراطي الاشتراكي ، ففهمت شعوره .

لم يكن الاختلاف بين المعهد العالي للحزب « معهد كارل ماركس » ، وبين مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية في الحو الحر نسبيا فقط ، بل في نوع الدراسة أيضا ، إذ لم يوجد في المعهد العالي لحزب

(١) طبقت قاعدة عامة في عام ١٩٥٢ : فيتقاضى الدارس المتزوج ٨٠٠ ماركا ، وغير المتزوج ٦٠٠ ماركا .

الاتحاد الاشتراكي الألماني تدريبات عسكرية ، ولا تعليم أساليب العمل غير المشروع — وعلى انضد من ذلك ، فقد كانت الدراسة النظرية أوسع مما كانت في مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية : يأخذ الطلبة في مادة الفلسفة أولا نظرة عامة عن تاريخ الفلسفة ، ثم يدرسون الفلسفة الماركسية — اللينينية بالتفصيل •

ويدرسون في الاقتصاد السياسي كتاب « رأس المال » لـ « كارل ماركس » ، فقرة فقره ، ونصوصا من مؤلفات « هيلفيردينج » و « روزا لوكسيمبرج » الاقتصادية ، والنظرية الاستعمارية اللينينية ، والاقتصاد السياسي في الاشتراكية •

وألزمتنا نحن المدرسين في قسم التاريخ بتدريس نظرة عامة في تاريخ العالم ، والتركيز على عهود الانتقال : التحول من مجتمع العبيد الى الاقطاع ، والتحول من الاقطاع الى الرأسمالية ، ثم يعقب ذلك محاضرات وقاعات بحث عن حرب الفلاحين الألمانين ، وحركة « الهوسيتين »^(١) ، والثورة الانجليزية ، والثورة الفرنسية ، وحرب نابليون ، وحرب الاستقلال في أمريكا — وبالتفصيل كبير — ثورة عام ١٨٤٨ م في مختلف البلاد الأوروبية ، وبعد هذه النظرة العامة ، ندرس تاريخ ألمانيا ، ابتداء من قيام « براندينبرج » ، وتطور الدولة البروسية ، ودور « فريدريش الثاني » ، وتوحيد ألمانيا بقيادة « بسمارك » •

لم يدرس تاريخ الحركة العمالية الألمانية كمادة مستقلة ، بل في اطار التاريخ الألماني العام من سنة ١٨٤٨ م حتى اليوم • ومن المسلم به أن هذه الحقبة أخذت الجزء الأكبر من مقرر التاريخ في المعهد العالي للحزب •

كانت محاضرات مادة « أسس الماركسية — اللينينية » مشابهة لما كان في مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، فقد كانت هي الموضوعات العادية التي تدرس في كل مدارس الأحزاب الشرقية ، من « أيزيناخ » حتى بكين : الطبقة والكفاح الطبقي — نظرية الدولة — أشكال وحقائق الديمقراطية — دور الطبقة العمالية — نظرية الحزب — النضال ضد

(١) أسسها المصلح « يوحنا هوس » في القرن السادس عشر • م شامة •

الاستغلال — الإصلاح والثورة — الاستراتيجية والتكتيك — مشاكل
الفلاحين — المشكلة الاستعمارية العالمية •

وكما كان الحال في مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية ، فقد
اعتنى عناية كبيرة بالرد على النظريات « المعادية » والمفاهيم « المضادة » •
كان مقررا أيضا في قسم التاريخ بيان — مع موضوعات أخرى —
الطبيعة العسكرية لمنطقة « مارك — براندينبرج » وطرد السلافيين
— لم تكن قد وجدت « الجبهة الوطنية » آنذاك — وتوضيح الطبيعة
الرجعية في البروسية ، وبمنوع خاص شجب الأساطير التي كتبت عن
« فريدريش الأكبر » •

لم يركز — مراعاة للقياديين من الحزب الديمقراطي الاشتراكي —
على دراسة انحراف « رودولف هيلفردينج » ، و « كارل كاوتسكي »
عن طريق الإصلاح في الأعوام المتأخرة • وكان نفس الوضع بالنسبة
لـ « لاساللي » • نعم • • لقد نقد رأيه ، ولكن لم يصور دوره في الحركة
العمالية الألمانية تصويرا سلبيا بمثل ما سمعته في مدرسة جبهة
الأحزاب الشيوعية العالمية •

لم يزل « أوجست بييل » — الذي مدح في مؤتمر الوحدة في عام
١٩٤٦ م — مقدسا في ذلك الوقت ، وتهامس المدرسون من الحزب
الشيوعي مع بعضهم : « يجب أن نكون حذرين في دراسته مثل حذرنا
في معالجة بيضة نيئة » •

اعتنى أيضا في المعهد العالي في ذلك الوقت بالأنا نكتفى بشرح
الدعوى ، بل بالتدليل على صحتها أيضا ، كما طلب من الدارسين قراءة
ودراسة الآراء المعارضة •

درست الآراء المعارضة والمعادية بتركيز خاص في قسم الفلسفة ، فقد
كان الدارسون يتلقون باستمرار كيفية دحض المفاهيم الخاطئة لـ « الحتمية
الماركسية » ، ويدرسون بالتفصيل العلاقة بين المنطق والجدلية ،
وكانت تطبع لهم آنذاك مذكرات تحت عنوان : « الهجوم العصري على
الماركسية » تضمنت نصوصا من مؤلفات وطنية ، وديمقراطية اشتراكية ،
غير أنه وجد — كما كان في مدرسة جبهة الأحزاب الشيوعية العالمية —
استثناء هام : فلم توجد في مكتبة المعهد مؤلفات « تروتسكي »
و « بوخارين » ولا مؤلفات أعضاء المجموعات المعارضة الهامة ، ولا كتب
الأعضاء الشيوعيين السابقين ، الذين اختلفوا مع « الستالينية » ،

كذلك لم ينقل أى نص من هذه الكتب فى المذكرات التى كانت تطبع فى المعهد ، فقد اعتبر اعطاء هذه المؤلفات للطلبة والمدرسين فى المعهد العالى للحزب لدراستها ، اعتبرت عند زعامة حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى فى برلين الشرقية فى عام ١٩٤٦ م أمرا خطيرا ، بالضبط كما كان ذلك بالنسبة لجهة الأحزاب الشيوعية العالمية فى عام ١٩٤٢ م فى « أوفنا » . ازداد هذا الاجراء حدة فيما بعد ، فلم يعد يسمح حتى بذكر أسماء أعضاء الحزب الشيوعى السابقين ، الذين انفصلوا فيما بعد عن « الستالينية » فعندما ذكر « آرتور دورف » — مدرس فى قسم « أسس الماركسية — اللينينية » ، ومقاتل سابقا فى أسبانيا — مرة فى احدى الدروس اسم « باول فروليش » — أحد رفقاء النضال مع « كارل لىبكنايث » ، و « روزا لوكسيمبرج » وانضم للمعارضة فى أواخر انعشرينات — ، اندفعت رئيسة القسم « فريدا روبينر » كـ « آلهة الانتقام » الى المنصة ، وضاحت : « أنا لا أسمح بأن يذكر هنا أسماء الخونة المعارضين » .

كان أعضاء هيئة تدريس المعهد يقومون بالقاء ثلثى المحاضرات تقريبا ، ولما كان هناك فى كل قسم من الأقسام الأربعة — بجانب رئيس القسم — ثلاثة أو أربعة مدرسين ، وبعض المعيدىين ، كان عند كل مدرس وقت كاف لتحضير المحاضرات .

لم تكن الرقابة آنذاك — أما نيوم فشىء آخر كما علمت ذلك — صعبة ، فقد اكتفى فى 'جتماع القسم ببيان عناصر المحاضرات وقاعات البحث ، وترك للمحاضر وللمشرف على قاعات البحث مجال واسع نسبيا يتحرك فيه بحريته . ولم يطلب تقديم المحاضرة مكتوبة الا من عدد قليل — وهم الذين كان يطلق عليهم « المحاضرون الضعفاء » — وكذلك من المعيدىين .

كان هناك — بجانب أعضاء هيئة التدريس — محاضرون من سكرتارية اللجنة المركزية لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى ، ومن هيئة تحرير مجلة « الوحدة » ، ومن جامعة برلين الشرقية ، كذلك كان يلقى — فى مناسبات — كبار القياديين فى الدولة غير المستقلة بعض المحاضرات ، فكان بعضها داخل المنهج العام وبعضها الآخر فى موضوعات خارج المنهج ، تتناول مجالات ضرورية للتنقيف العام .

فقد تحدث — مثلا — « كلاوس تسفايليتج » عن « مدخل فى

مشاكل علم الأحياء » ، والأستاذ « ماير » عن « التطور التاريخي للآلات الموسيقية » ، والدكتور « بولاك » عن « المسائل القانونية » وعن « مشكلة المعدانة في الادارة الشعبية » ، والأستاذ « موزيل » — وهو أستاذ في جامعة برلين — عن « مسائل فردية في تاريخ القرن التاسع عشر » .

كذلك عولجت الأحداث الأيديولوجية في العالم الغربى بالتفصيل ، فعلى سبيل المثال ، عقدت ندوة كبيرة للطبيين والفلاسفة في أوائل ابريل سنة ١٩٤٨ م في « كلاوسثال » — في منطقة « هارتس » — ، فلم نحصل فقط على تقرير دقيق ، بل ألقى أيضا محاضرات كثيرة في مشاكل هذه الندوة .

لم يكن من السهل على كثيرا من الدارسين فهم المسائل الدقيقة في العلوم الطبيعية ، وما شابهها .

كانت المحاضرات الاضافية عن المشاكل العالمية مهمة جدا ، فقد ألقى في ذلك الوقت محاضرات عن الوضع في الشرق الأوسط ، وعن الثورة في الصين — ألقاها قيادى عاد لتوه من الصين — ، وألقى « دارامالييف » — وهو عضو في هيئة زعامة الحزب البلغارى — تقريراً مفصلاً عن الوضع في بلغاريا ، تجاوز ما قرأناه في الصحافة .

كان الحديث في المحاضرات الاضافية التى ألقاها قياديون من طبقة القمة عن بعض مسائل السياسة الراهنة لحزب الاتحاد الاشتراكي الألماني في المعهد العالى أكثر حرية من الكلام في الاجتماعات العامة ، وبهذا حصلنا على صورة واضحة للوضع في المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، وللصعوبات داخل الحزب — منع في بعض الحالات عدم كتابة أى شىء مما يقوله المحاضر .

أخبرنا بعد أسابيع قليلة من وصولى — أى في نهاية خريف عام ١٩٤٧ — في اجتماع لأعضاء هيئة التدريس :

— « اقترحت الجهات المسئولة تطوير المعهد العالى للحزب وتوسيعه ، ولا تتسع البانى الحالية في « ليبينفالد » لهذا الغرض ، ولذا فيجرى العمل في الوقت الحاضر ، لتجهيز مقر للمعهد العالى في « كلاين — ماخنوف » بالقرب من برلين . وسيتم الانتقال اليه في أوائل عام ١٩٤٨ م » .

يبدو أنه عندما اتخذ هذا القرار ، لم يحسب أحد بعد ، أن العلاقة

بين الاتحاد السوفييتى ، وبين القوى الغربية ستتدهور بسرعة ، اذ لا يبعد المبنى الجديد لمعهدنا سوى كيلو متر واحد عن حدود المنطقة الأمريكية فى برلين •

دعانى « رودولف لينداو » فى نهاية ديسمبر سنة ١٩٤٧ م :
— « سأسافر اليوم لمشاهدة المبنى الجديد ، فاذا أردت ، فتستطيع أن تأتى معى » •

لقد فاق ما رأيته فى عصر هذا اليوم من ديسمبر أقصى ما توقعته : خمسة مباني حديثة ضخمة بالنوافذ الكبيرة ، فى وسط منتزه ، وجراجات ، وممرات تحت الأرض ، تصل الخمسة مباني ببعضها ، ومئات من حجرات السكن المؤتثة بأثاث حديث • كل طالبين أو ثلاثة فى حجرة •

وكانت هناك « فيلات » صغيرة لسكن رؤساء الأقسام ، واذا كان عضو هيئة التدريس متزوجا ، يحصل على « فيلا » فى « كلاين — ماخنوف » واذا كان غير متزوج يأخذ شقة جميلة فى منزل جديد •
انتقلنا فى الأيام الأولى من يناير سنة ١٩٤٨ • فامتسع النشاط فى المعهد العالى للحزب ، اذ زاد عدد الدارسين فى الدورة الدراسية ، التى تستمر ستة أشهر ، والتى يعد فيها القياديون المسؤولون • وفى نفس الوقت أنشئ عدد من الدورات الدراسية القصيرة •

بدا لنا فى أوائل عام ١٩٤٨ م — ولم يكن قد مر ثلاث سنوات كاملة على هزيمة ألمانيا الهتلرية — أن هذه المباني الضخمة ، التى يتخرج منها مئات من القياديين ، هى أقصى حدود ما يمكن انشاؤه ، ولكنها كانت البداية فقط •

امتدت الدورة الدراسية ذات الستة أشهر — التى تعد القياديين المسؤولين — فى عام ١٩٤٩ م الى تسعة أشهر ، ومنذ عام ١٩٥٠ م أنشئت دورة أخرى مدتها عام ، وبدأ فى خريف عام ١٩٥٠ م دراسة بالمراسلة فى المعهد العالى للحزب •

وامتدت مدتها فيما بعد من ثلاثة أعوام ، الى خمسة أعوام ، وفى فبراير سنة ١٩٥٣ بدأت دورة دراسية مدتها ثلاث سنوات ، ويعقد فى نهايتها امتحان عام • وأصبح — غيما بعد — للمعهد العالى الحق فى منح درجة الدكتوراة والأستاذية أيضا •

تخرج فى هذه الدورات الدراسية — وكانت تزداد باستمرار كلاً

عام — مئات وآلاف القياديين ، الذين تثقفوا ثقافة عالية ، فصاروا بذلك من المدافعين المتحمسين لأحيولوجية وتعاليم الحزب •



زيارة « أولبريخت » و « توليانوف »

لاحظنا بعد أسابيع قليلة من انتقالنا الى المقر الجديد — وكان ذلك في أوائل عام ١٩٤٨ م — أننا امام تحول في « الخط » ، فقد كثرت زيارات « جروتيفول » و « بيك » و « أولبريخت » للمعهد •

وألقي « أولبريخت » في ١٦ ابريل سنة ١٩٤٨ محاضرة — استمرت خمس ساعات — عن الوضع العام في المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتي ، للتلميح لنا بالتغيرات القادمة • تكلم « أولبريخت » بصراحة عن أشياء ، بعضها لم يذع رسميا الا بعد نصف عام • كانت الملاحظات الهامة في هذه المحاضرة التلميحية ما يلي :

— لم يمكن معالجة كثير من المشاكل بصراحة في الفترة من ١٩٤٥ الى ١٩٤٧ م ، ولذا اضطر حزب الاتحاد الاشتراكي الألماني أن يتقدم خطوة ، خطوة ، سواء أكان ذلك على أساس اعتبارات سياسية أيديولوجية ، أو مراعاة لوضع السياسة الخارجية ••

— تم ارساء أسس النظام الديمقراطي المناهض للفاشية حتى عام ١٩٤٧ م • والآن •• في أوائل عام ١٩٤٨ م — حيث أصبح ٤٠ ٪ من الانتاج في أيدي المؤسسات الشعبية ، وضعفت الرأسمالية ضعفا شديدا — يمكن أن تعتبر هذه المرحلة قد انتهت •

— ومثل ذلك في مجال الزراعة ، فقد نفذ تمانون الاصلاح الزراعي ، فقسمت مساحات الاقطاع الكبيرة ، فولت هذه الظاهرة الى غير رجعة • والآن •• يمكن الاعتماد على صغار الفلاحين ، والطبقة المتوسطة منهم في تكوين منظمة ، للحيلولة دون رجوع الاقطاعيين الى السيطرة مرة أخرى ••

بين « أولبريخت » أن النضال الطبقي وصل الى ذروته بواسطة هذه المتغيرات الواسعة في الأحوال الاجتماعية ، ولكن أصبحت صيغ وطرق النضال الطبقي شيئا آخر : « فلدينا الآن امكانية تنفيذ مطالبنا بمساعدة جهاز الدولة ، ويجب علينا من ناحية أخرى زيادة نشاط المنظمات الجماهيرية ، كي تغير سياسة الكتلة طبقا لجوهرها » ••

أصبح حزبنا حزب دولة ، يتحمل المسؤولية الكاملة لحل مشاكل الشرطة ، والخطة الاقتصادية ، والزراعة ، والسياسة الثقافية • • لعبت « سياسة الكتلة »^(١) دورا كبيرا في مرحلتها الأولى ، غير أن القوى الرجعية دبت فيها الحياة الآن في الأحزاب الوطنية ، كي تعطل تنفيذ اجراءاتنا بحجة « دراستها وتمحيصه » • •

ولا نريد الآن سلوك الطريق المؤدى الى نظام الحزب الواحد ، ولكن نسعى الى أن يكون حزبنا ، هو لقوة المائدة ، والمتحملة للمسؤولية في الدولة • غير أنه يجب علينا في المرحلة الجديدة أن نتعاون مع كلا الحزبين الآخرين « ربما كان من الأفضل أيضا تأسيس بعض الأحزاب الجديدة » • •

لم يلق هذا الكلام عشوائيا ، فقد أعلن بعد شهرين عن تأسيس « الحزب الديمقراطي الوطنى » ، و « حزب الفلاحين الديمقراطى » • وكان الهدف من تأسيسهما 'ضعاف الحزبين الوطنيين « حزب الاتحاد الديمقراطى المسيحى » و « الحزب الديمقراطى الليبرالى » الموجودين في المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى ، وتفتتت القوى السياسية الموجودة خارج حزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى •

أخذنا استعدادنا — بعد سماع محاضرة « أولبريخت » في المعهد ابعالى للحزب في منصف ابريل — لذلك التغيير السياسى ، الذى غير الحياة بأكملها في المنطقة الألمانية الواقعة تحت الاحتلال السوفييتى في خريف عام ١٩٤٨ م ، فتحولوا بذلك عن « كبح » موجة التطور في المنطقة السوفييتية ، الذى كان سائدا حتى نهاية عام ١٩٤٧ م مراعاة للوضع في بقية مناطق ألمانيا ، ومراعاة للعلاقة مع الحلفاء الغربيين • • وضعت بداية « المرحلة الجديدة » — التى أنبأنا بها « أولبريخت » — مشكلة « الديمقراطية الشعبية » في قائمة جدول أعمال ذلك النظام الذى تكون في دول الكتلة الشرقية • كان تحديد مضمون وجوهر مفهوم « الديمقراطية الشعبية » حتى أوائل عام ١٩٤٨ م من المشاكل القليلة التى لم تحل ، ولم يصدر بعد بشأنها أى توجيه رسمى •

ومن هنا يمكن للمرء أن يتصور تشوقه الى ما سيحدث ، عندما أعلن « رودولف لينداو » بعد أيام قليلة من القاء « أولبريخت » محاضرتة :

(١) وهى الكتلة الشرقية •

— « سيلقى الرفيق العميد « تولبانوف » — المستشار السياسى
للادارة العسكرية السوفييتية — محاضرة عن موضوع « الديمقراطية
الشعبية » •

درس العميد « تولبانوف » الفلسفة فى « ليننجراد » ثم كان قياديا
فى الحزب سنوات عديدة ، وسيلقى محاضراته باللغة الألمانية •
وعلى الرغم من أن المحاضرة كانت مكتوبة وموضوعة أمامه ، فقد
ارتجل الحديث وأخذ نصف وقت المحاضرة التى استغرقت ست ساعات ،
فى تحليل قيام الديمقراطية الشعبية •

تحدث « تولبانوف » بالتفصيل عن « خاصتين من خواص قيام
الديمقراطية الشعبية » — وجود الاتحاد السوفييتى ، والكفاح المشترك
ضد الفاشية — ، وعن « الطبيعة المزدوجة للثورة الديمقراطية الشعبية »
— لأنها فى نفس الوقت ثورة ديمقراطية وطنية — ، وعن الصفة المميزة
للقوى الطبقة — تحالف الطبقة العمالية — والفلاحين ، والمتقنين ،
والوطنية الصغيرة ، وبعض البرجوازيين المتحمسين لنوطن • ثم جاءت
النقطة الحاسمة ، فقد وصفنا — حتى الآن — الديمقراطية الشعبية —
وهى نظام دول الكتلة الشرقية — بالتقدمية ، وأحيانا أيضا بأنها
الديمقراطية « الحقيقية » ، ولكن بين « تولبانوف » الآن أن الثورة
الديمقراطية — « اذا سارت فى تطورها دون عقبات — تتحول مكرهه
الى ثورة اشتراكية » •

فالديمقراطية الشعبية ، تهبى للتطور الاشتراكى • ويأخذ النضال
الطبقي فى بلاد الديمقراطية الشعبية أشكالا جديدة ، ويمكن أن يتحدث
المرء عن نضال طبقي من أعلى ، ومن أسفل ، لأن الحزب يضع جهاز
الدولة فى خدمة نضاله • فالديمقراطية الشعبية ، هى ديكتاتورية العمال
والفلاحين الديمقراطية ، التى تمارس فى شكل صيغة حكومة ائتلافية •
ثم صاح « تولبانوف » بأعلى صوته :

— « •• اذا كان البورجوازيون قد نجحوا فى ممارسة ديكتاتوريتهم
عن طريق الحكومات الائتلافية ، فقد نجحنا اليوم فى ذلك بطريق
معاكس • دعوا البورجوازيون يعملون ضد الدولة فالديمقراطية الشعبية
ستتطور الى ديكتاتورية « البروليتاريا » ، وليس ذلك عن طريق ثورة
جديدة ، بل عن طريق التطور المستمر ، حيث يصبح تكوين حزب واحد

من الأمور المسلم بها ، وبنهاية الثورة الديمقراطية الشعبية ، يكون قد بدأ تحويل هذه الثورة الى ثورة اشتراكية » .

كانت ملاحظاته عن الوضع في دول شرق أوروبا المختلفة في أوائل عام ١٩٤٨ م هامة جدا :

« .. لو تصورنا أن هناك نهرا كبيرا ، والديمقراطية الرأسمالية الوطنية على أحد شاطئيه ، وشكل الدولة الاشتراكية على الشاطئ الآخر ، فاننا نستطيع أن نقول : بلغت يوغسلافيا الشاطئ الآخر فعلا ، وتسبح بلغاريا الآن لقطع المسافة الأخيرة ، لتصل الى الشاطئ الآخر . أما بولندا وتشيكوسلوفاكيا فلا زالتا في وسط النهر تقريبا ، وتأتي بعدهما المجر ورومانيا اللتان لا زالتا في الثلث الأول ، بينما المنطقة السوفييتية في ألمانيا ، فقد بدأت توا في السباحة من الشاطئ الوطني » .

فكرت في اشارة « ميشا فولف » الى أن « تولبانوف » كان قد عارض رأى « آكارمان » في خريف عام ١٩٤٧ م في دوائر ضيقة ، فانتظرت متشوقا الى ما سيقال حول موضوع الطريق المختلف الى الاشتراكية .

والآن .. في منتصف ابريل سنة ١٩٤٨ م ، يصرح « تولبانوف » علنا — في مجمع عام ، فلم يعد مكان للحذر الآن — أن الوقت قد حان لتضييق دعوى الطريق المختلف الى الاشتراكية .

توجد أشكال خاصة تتطابق مع الظروف الوطنية ، ويمكن أن تكون الأشكال والطرق مختلفة ، ولكن المضمون سيكون — بل يجب أن يكون — متشابها . . . ، اذ تدل التجارب على أنه لا يوجد طريق وطني خاص للمرحلة الانتقالية الى الاشتراكية في يوغسلافيا ، يختلف عن الطريق الوطني في بولندا ، أو في المجر ، أو في تشيكوسلوفاكيا (١) .

طرح محاضرتة سيلا من المشاكل الجديدة ، فأبدى استعدادة

(١) نشرت محاضرة « تولبانوف » احدى القاهات في المعهد العالى للحزب ، بصيغة مختصرة ، لينة النجمة ، في مجلة « العالم الجديد » موقعا عليها باسم مستعار هو « ا . برلينج » ونزلت التعليمات الى كل ادارات وهيئات الحزب ومنظماته ، بدراسة هذا المقال دراسة دقيقة ، ما كلفت مدارس المراكز ومدارس المحافظات بادراجه في مقرراتها الدراسية . وطبعا لم يذكر ان وراء اسم « ا . برلينج » يختفى المستشار السياسى للادارة العسكرية السوفييتية .

للحديث مع محاضري ومدرسي المعهد 'العالى عن بعض مسائل « اضافية »
والاجابه على الأسئلة •

كنا نجلس — بعد نصف ساعة من انتهاء المحاضرة — مع « تولبانوف »
فى حجرة العميد ، فوجه الينا تحذيرا هاما :

— « كل ما يقال هنا هو للمدرسين فقط ، فلا يجوز التحدث به فى
الحلقات الدراسية » •

أعطانا « تولبانوف » تلميحات الى قرب حدوث توتر فى العلاقات
الدولية ، والى « الاسراع فى التطور السياسى » فى المنطقة السوفييتية •
وفى النهاية روى لنا شيئا عن الاستعدادات القائمة لتكوين حزب
جديد :

— « قمنا فى الادارة العسكرية السوفييتية بسلسلة من البحث عن
أحوال الأعضاء والقياديين فى الحزب النازى السابق ، فاققتنا بأنه
يوجد قوى يمكن الانتفاع بها ، انضمت هذه القوى انضماما لا قيمة له
الى منظمات الحزب والمنظمات الجماهيرية ، وقد رأينا الآن فصلهم من
هذه المنظمات ودفعهم الى نشاط آخر — وتحدثت مع بعضهم حديثا
مفصلا — ، ألا وهو انضمامهم الى حزب جديد — رأينا أن من الأفضل
تكوينه — يكون فى المنطقة السوفييتية ، يجمع هذه القوى ويوحدها ،
لتستغل فى تطور واسع فى المنطقة السوفييتية ، وسيطلق على هذا الحزب
اسم : « الحزب الديمقراطى الوطنى » ، وسوف ينبغى أن تعطى هذه
القوى امكانية ظهور أكبر فى المنطقة السوفييتية • وانتقلنا فى هذا المجال
أبضا الى « مرحلة جديدة » •



ظفر الحزب الديمقراطى الوطنى بعد شهرين تقريبا ، وبالتحديد فى
١٦ يونيو سنة ١٩٤٨ م • وعندما كنت أتجول فى « كلاين — ماخوف »
مع أحد المدرسين ، اكتشفنا اليافطة الكبيرة الأولى للحزب الجديد على
مسافة قريبة جدا من المعهد العالى للحزب ورأينا هذا الشعار مكتوبا
عليها بالخط العريض : « ضد الماركسية — من أجل الديمقراطية »
وكتب أسفل اليافطة بالخط الصغير جد : « بتصريح من الادارة العسكرية
السوفييتية » • تلك الادارة التى لم تصرح فقط بهذه اليافطة ، بل من
المحتمل أنها حثت على كتابتها وتعليقها ليراها الجمهور ...

(٣٦ — نظام الحكم الشيوعى)

جاء أينا العميد « تولبانوف » مرّة أخرى بعد بضعة أسابيع من انقضاء محاصرته عن « الديمقراطية الشعبىة » ، غير انه لم يكن محاصرا فى هذه المرّة . لقد جاء ليحضر اجتماعا صغيرا مع ممثلى اللجان المركزية للأحزاب الشيوعية الأجنبية ، ومن بينهم ممثلون من النمسا ، وتشيكوسلوفاكيا ، والنرويج . وكان « بيك » و « داليم » ضمن المشتركين فى هذا الاجتماع ، عن اللجنة المركزية لحزب الاتحاد الاشتراكى الألمانى . كذلك اشترك فيه من المعهد العالى للحزب ، « رودولف لينداو » واثنان من المدرسين ، كنت أحدهما .

لقى قياديو اللجنة المركزية من البلاد الأخرى ، تقارير قصيرة عن الوضع فى بلادهم . ووجه « فيلهيلم بيك » فى آخر الاجتماع كلمة شكر الى العميد « تولبانوف » ، والى سلطة الاحتلال السوفييتى ، ولم يكذب ينتهى من هذه الاوعقب « تولبانوف » مبتسما :

— « أيها الرفقاء .. يشرفنى أن يكون لدى رفيقنا « بيك » هذا المظن الحسن بسلطة الاحتلال السوفييتى ، ولكنى أحب أن أقول : ان سلطة الاحتلال السوفييتى ارتكبت أخطاء فظيعة وشنيعة فى ألمانيا ، ومن الصعب جدا — للأسف — اصلاحها ، ولا أستطيع أن أقدم سوى عذر واحد ، هو أننا لم نهتم اطلاقا من قبل بالاحتلال الاشتراكى . — الاحتلال الاشتراكى ! كان هذا شيئا جديدا كلية بالنسبة لنا . ربما أستطيع أن أوكد فى هذا المحيط أنه اذا اضطرنا عدونا فى المستقبل الى تنفيذ احتلال اشتراكى ، فسوف نتصرف تصرفا أحسن ، بناء على ما تعلمناه من تجارب — فى ألمانيا » .

رجعت الى منزلى مفكرا ، جزعا من هذا التعبير « الاحتلال الاشتراكى » الذى صرح به « تولبانوف » بطريقة لينة مقبولة . مضى عام ١٩٤٦ م ، وازداد عندى الشك فى أشياء كثيرة . احتلال اشتراكى — ألم تكن النهاية الأخيرة لمفهومين انفصلا عن بعضهما ؟ ألم يكتب « فريدريش انجلز » :

— « لا تستطيع « البروليتاريا » المنتصرة اكرام شعب أجنبى على أى ابتهاج ، دون أن تدفن بذلك انتصاره الذاتى » ؟ (١) . أصيب شكلى « الموزايكى » وترددى بحجر جديد !

(١) فريدريش انجلز : خطاب الى « كارل كاوتسكى » فى ١٢ سبتمبر